# النظرية الماركسية في التراكم الأولي

# وتصنيع العالم الثالث

ارنست مانديل (١)

ترجمة : محمود كبيبو

— أ —

النقص العجيب الذي اتهمت به النظرية الاقتصادية الماركسية كان من شومبيتر الذي ادعى انها غير قادرة لأن تطور نظرية في التراكم الأولي لرأس المال تتفق ونظريتها في « الفائدة » ( أي في القيمة الزائدة ) (١) . أما في الواقع فانه من المزايا الرئيسية للنظرية الاقتصادية الماركسية انها نجحت في الدمج بين النظرية والتاريخ ، ليس فقط ، لأن ماركس انطلق من المعرفة لطابع ما يسمى

---

(١) E. Mandel : Die marxsche Theorie der ursprünglichen Akkumulation und die Indústrialisierung der dritten Welt .
من كتاب : Folgen einer Theorie . Essays über « Das Kapital » Von Karl Marx . edition suhrkamp : Frankfurt 1967 .

(٢) Josef Schümpeter, Business Cycles, I, p. 229 new york 1939

« مقولات الاقتصاد السياسي » الماضي تاريخياً ، أي المحدد اجتماعياً ، وإنما أيضاً، لأن طريقة، في البحث كانت تكوينية، بمعنى أنه فهم نشوء وتوسع ثم انعدام هذه المقولات كعملية تاريخية. وفي إطار طريقة البحث هذه أكد ماركس بصورة خاصة على المنشأ التاريخي والاقتصادي لرأس المال وعلى الاشكال المختلفة تاريخياً للقيمة الزائدة، حسب كونها منبثقة من الدورة الاقتصادية في مجتمع ماقبل الرأسمالية أو من عملية الانتاج في المجتمع الرأسمالي (١) .

نظرية رأس المال الماركسية ( رأس المال هو قيمة زائدة مولدة لقيمة زائدة جديدة ) ترتكز على فهم كامل لعملية المبادلة الاقتصادية . في الانتاج السلعي البسيط ، الذي ينشأ بصورة عامة في مجتمع يقوم على الاقتصاد الطبيعي تتطور جنباً الى جنب عمليتان، الأولى عملية الدورة السلعية البسيطة ( بضاعة-نقد -بضاعة ) يقوم بها الحرفيون والفلاحون ، والثانية عملية دورة النقد (نقد - بضاعة - نقد زائد ) . ولقد سمحت هذه الأخيرة - مبنية على مبادلة لا متساوية ومتجسمة في رأس المال التجاري والربوي - بنشوء أول أشكال القيمة الزائدة . في المرحلة الأولى للتراكم البدائي لرأس المال-التراكم البدائي لرأس المال النقدي -التي كانت في العصور الوسطى تعني تلك قيمة زائدة بواسطة رأس المال الذي يتم الحصول عليه بانتزاعه شيئاً فشيئاً من طبقات المجتمع الأخرى، اقطاعيون وملوك يبادلون محصول الأرض الطبيعي برأس مال ربوي ، الأجزاء المتخلفة من البلدان او الشعوب

(١) الامكنة الرئيسية التي يتكلم فيها ماركس عن نظريته في التراكم الأولي هي : رأس المال ، الجزء الأول ، الفصل الرابع : تحول النقد الى رأسمال ؛ الفصل الرابع والعشرون : ما يسمى بالتراكم الأولي ، وبشكل جزئي في الفصل الحادي عشر والفصل الخامس والعشرين ؛ ثم رأس المال ، الجزء الثالث ، الفصل العشرون : حول تاريخ رأس المال التجاري . اعتمدنا هنا على الطبعة الألمانية الرابعة ، هامبورغ ١٨٩٠ .

الغربية يبادلون سلعاً مقابل نقود أقل مما تجلبه هذه السلع في الأسواق الاوروبية، كان المنشأ الأولي لرأس المال يكمن في هذه المبادلة اللا متساوية ، التي تشمل مع توسع الاقتصاد النقدي طبقات أخرى في المجتمع حتى يصل الأمر الى مديونية عامة لأفراد الشعب تجاه رأس المال النقدي (١) .

تتحول هذه العملية في طريقة الانتاج الرأسمالية الى نقيضها . هنا نجد أن مبادلة قيم متساوية هي القاعدة . الغش يصبح شذوذاً ويحدث فقط على أطراف الحياة الاقتصادية . تملك القيمة الزائدة ( نقد ـ بضاعة ـ نقد زائد ) لايتم هنا في الدورة الاقتصادية البسيطة بل يشمل عملية الانتاج بكاملها . يتحول النقد هنا الى رأسمال في عملية الدورة الاقتصادية بانفاقه في شراء الآلات والمواد الأولية والخ. ( رأسمال ثابت ) وفي شراء القوة العاملة ( رأسمال متغير ) ثم يتحول بعد ذلك بتشغيله المنتج في عملية الانتاج الى سلع ، ثم تعيد هذه السلع رأس المال ثانية مكبراً بمقدار القيمة الزائدة .



عندما يحقق استثمار رأس المال المنتج ، في عملية الانتاج الرأسمالية وعلى اساس مبادلة قيم متساوية قيمة زائدة ، فان الأمر لايتعلق بمبادلة متساوية. مبادلة رأس المال بالعمل ( شراء قوة العمل برأس المال ) هي مبادلة لا متساوية لقيم متساوية : ان لقيمة العمل قوة استعمال خاصة ، وهي أنها قادرة على انتاج قيمة

---

(١) « الغش في المبادلة يشكل القاعدة للتجارة مها بدا هذا الغش مستقلا عنها » ( الاسس ص: ٢٤٧ ) .

« طالما ان رأس المال التجاري يلعب دور الوسيط في مبادلات الانتاج لمؤسسات متخلفة يظهر الربح التجاري ليس فقط كغش بل انه ينتج بقسمه الأكبر من هـذا الغش » ( رأس المال ، الجزء الثالث ، س : ٣١٤ – ٣١٥ ) .

اكبر من القيمة التي تكلفها [1] . يحصل فوق هذا في الاقتصاد العالمي الرأسمالي عملية مبادلة قيم لا متساوية تحدد بواسطة درجات الانتاجية المتفاوتة الموجودة في البلدان المختلفة التي تمارس تجارة فيما بينها [2] .

تكوّن، على هذا الأساس وعلى ضوء نظرية الاقتصاد الماركسية، العملية التاريخية لنشوء وتملك القيمة الزائدة وحدة ديالكتيكية لحلات ثلاث مختلفة : مبادلة لا متساوية قائمة على قيم متساوية . إن مراعاة هذه الحالات التاريخية الثلاث هي التي تمكن من الاجابة على السؤال عن كيفية تشكل رأسمال في العالم الغربي، وعن كيفية نموه وتوسعه . هنا سنصطدم في نقطتين - في المبادلة اللا متساوية في عصر ما قبل الرأسمالية وفي المبادلة اللا متساوية في التجارة العالمية الحالية - حالاً بالعلاقة الخاصة بين رأس المال الغربي وبين ما يسمى بالبلدان المتخلفة ، الشيء الذي سنتطرق اليه في مجرى هذه الدراسة .



٢

اننا نعلم ان رأس المال كان يتملك القيمة الزائدة قبل انتشار طريقة الانتاج الرأسمالية عن طريق المبادلة اللامتساوية قبل كل شيء . رأسمال ربوي

---

(١) والمبادلة بين الدخل والعمل . الشيء الحاسم في الموضوع هنا هو ما اذا كان العمل يخصص للانتاج السلعي . الفرق بين هذين الشكلين من المبادلة « هو الفرق الكامل بين طريقة الانتاج الرأسمالية وطريقة الانتاج اللارأسمالية » .

(٢) بالمقارنة مع العمل الأقل كثافة ينتج العمل الوطني الكثيف، وفي نفس الوقت، قيمة أكبر تظهر على شكل كمية اكبر من النقد . يتغير قانون القيمة ايضاً بتطبيقه على السوق العالمية اذ ان العمل الوطني الأكثر انتاجية يعتبر ايضاً اكثر كثافة ، طالما ان البلد الأكثر انتاجية غير مرغم من قبل المزاحمة لأن يخفض سعر سلعه الى قيمتها »( رأس المال ، الجزء الاول ، ص ٥٢٢ )

ورأسمال تجاري في العصور الوسطى يشكلون لهذا المرحلة القبليـــة فقط ، إنهما يوضحان كيف أمكن تجميع كميات كبيرة من النقد ورأس المال في مجتمع يقوم تقريباً بشكل كامل على الاقتصاد الطبيعي ويتميز بافتقار كبير إلى النقد ورأس المال إن البحوث التاريخية الجديدة تؤكد الدور الحاسم الذي - وكما قال ماركس - « لعبه النهب والقرصنة البحرية واصطياد العبيد » في القرنين التاسع والعاشر عند توسع المدن الايطالية . كما اننا نجد منذ العصور الوسطى في مجال رأس المـــال التجاري والمصرفي منافسة - قبل رأسمالية بين رؤوس الأموال أدت حتى الى نوع من التوازن في أقساط الربح . ولكن الأمر يتعلق هنا بعمليات تحـــدث على أطراف الحياة الاقتصادية ،أي خارج الانتاج والدورة الاقتصادية المنبثقة منه. وإن الربا والقروض المقدمة للحكام ثم تجارة الجملة بالبضائع الغريبة والكمالية كانت هي الحقول الرئيسية لمشاركة رأس المال هذا. نجدهنا أنه، وحتى لو استطيع بين حين وآخر تجميع كميات كبيرة من رأس المال من خلال القيام بالأعمال المذكورة ، فإن رأس المال هذا لا يتمكن أبداً تحت ظروف السيادة الاقطاعية في المجتمع ان يسيطر على الاقتصاد أي على الانتاج : سياسياً يبقى خاضعاً هنا لملكيات الأرض الاقطاعية الكبيرة ، وهناك لسيطرة تجمعات حرفيي المدن .

فقـــط في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر في المرحلة الثانية للتراكم البدائي - التراكم البدائي لرأس المال الصناعي - حصل رأس المال وبشكل نهائي على مركزه المسيطر في الاقتصاد والمجتمع . التوسع الهائل لرأس المال التجاري مع ظهور الشركات المساهمة الضخمة الأولية ، نشوء ديون الدولة الحديثة والبورصات الحديثة ، تطور البنوك الحديثة الأولى ودخول رأس المال في الانتاج الصناعي والزراعي ( في تطوير صناعة المنسوجات والطباعـــة

والصناعات اليدوية والتصنيع الحديث الزراعة في بلجيكا وشمال ايطاليا وشمال فرنسا وبعد ذلك في انكلترا ) - هذه هي المراحل المعروفة للزحف الأول لرأس المال الغربي في عصر « التراكم البدائي » الفعلي ، الذي سبق الثورة الصناعية في منتصف القرن الثامن عشر وجعلها الى حد كبير ممكنة .

المشاكل الاقتصادية التي طرحت بسبب هـذا التحول التاريخي عديدة ومعقدة . من أين جاءت فجأة هذه الكميات الهائلة من رأس المال ، والتي جعلت توظيفه المنتج ملحاً ؟ كيف حصل التغير السريع للعلاقات الاجتماعية التي جعلت هذا التوظيف يتم بنجاح ؟ أية تبدلات في علاقات القوى السياسية كانت الأساس لهذه التغيرات ؟ فماذا كان موقف النظام الاقطاعي في الريف ونظام التجمعات الحرفية في المدن من هجوم القوة الجديدة المحولة هذه ؟ أية تغيرات تقنية - ليس فقط بما يتعلق بتقنية الانتاج ، بل ايضاً بالتقنية التجارية والمالية وبخاصة علم المحاسبة - سهلت ومكنت من حدوث هذا التحول ؟



في الفصل الرابع والعشرين المشهور من المجلد الأول لرأس المال ، الذي خصص لبحث « مايسمى بالتراكم الأولي » ، يركز مـاركس على الشروط الاجتماعية القبلية لتجميع رأس المال ( في الدرجة الأولى حرمان عدد كبير من المنتجين من الوصول التقليدي الى وسائل الانتاج ، وبصورة رئيسية الى ملكية الأرض ) وعلى المنشأ الاقتصادي القائم على النهب الرأسمـال المجمع : نهب البلدان الأخرى ( النظام الاستعماري ) ، نهب شعب البلد نفسه ( نظام الضرائب ونظام حمـاية الصناعة الوطنية ) ونهب الدولة ( نظام ديون الدولة ) ، الشيء الذي سنعبر عنه معتمدين على ملاحظـة من انجلس حول طريقة الانتاج الآسيوية

القديمة (١) . وهنا يقع التشديد على ظاهرة المبادلة اللامتساوية حيث تظهر السرقة والنهب بشكل مفضوح تماماً .

على ضوء المشاكل الراهنة لما يسمى بالبلدان المتخلفة فإنه من المناسب عرض ـ وعلى الأقل بخطوط عريضة ـ المساهمة التي أدتها هذه البلدان وبشكل لاطوعي في ميدان التراكم الأولي لرأس المال الصناعي الأوروبي . ولقد أعطت البحوث المعاصرة ماركس كل الحق عندما كتب: «إن اكتشاف بلدان الذهب والفضة في امريكا ، وإفناء واستعباد وقبر السكان الأصليين في المناجم، والسيطرة على شرق الهند ونهبها، وتحويل افريقيا الى حقل لإصطياد السود وبيعهم ، كل هذا يمثل شفق بزوغ منطقة الانتاج الرأسمالية ، لأن هذه العمليات هي عوامل رئيسية للتراكم الأولي » (٢) . لابل ان المرء يستطيع القول ان ماركس قد أعطى استغلال العالم الثالث بالنسبة لتراكم رأس المال الصناعي في أوروبا الغربية أهمية أقل مما يستحق .



لقد حاولنا في مكان آخر (٣) حساب الأرقام الهامة لنهب المستعمرات بالسرقة المباشرة وبتجارة العبيد وبالتجارة « العادية » في الوقت من عام ١٥٠٠ الى عام ١٧٥٠ :

---

(١) كان لدى الحكومات في الشرق دائماً ثلاث وزارات فقط : المالية ( نهب الداخل ) ، الحربية ( نهب الداخل والخارج ) والاشغال العامة ( الحرص على اعادة الانتاج ) » ( مراسلات بين ماركس وانجلس ، الجزء الأول ، ص : ٤١٠ ، شتوتجارت ١٩٢١ ) .

(٢) رأس المال ، الجزء الأول ، ص ٧١٦ .

(٣) Ernest Mandel, Traité d'Economie Marxist, II . p. 74 - 74 , paris 1962 .

آ – ي . ج . هاميلتون قــدر قيمة الذهب والفضة المنقولة من قبل الاسبان من امريكا الشمالية والجنوبية في الأعوام من ١٥٠٣ الى ١٦٦٠ بمبلغ ٥٠٠ مليون بيزوس ذهبي .

ب – د . ب . رينشون قــدر الربح الصافي الذي حققه رأس المال الفرنسي من تجارة العبيد في القرن الثامن عشر بمقدار نصف مليار غولدن ذهبي افرنسي تقريباً ، هذا عدا الأرباح التي جاءت عن طريق تشغيل العبيد في حقول الهند الغربية والتي فاقت المبلغ الأول بعدة أضعاف .

حـ – كولينبواندر قدر الغنائم المنقولة عن طريق شركة الهند الشرقية الهولندية في الاعوام من ١٦٥٠ الى ١٧٨٠ بمبلغ ٦٠٠ مليون غولدن ذهبي .

د – حسب هـ . ف وانزمان وحسب تاريخ كامبردج للامبراطورية الانكليزية بلغت المدخولات البريطانية من تشغيل العبيد في الهند الغربيــة البريطانية على الأقل مبلغاً قدره ٢٠٠ – ٣٠٠ مليون جنيه ذهبي .



هـ – وأخيراً فلقـد جلب نهب الهند فقط خلال المدة من ١٧٥٠ الى ١٨٠٠ للطبقة المسيطرة في بريطانيا مبلغاً قدره ١٠٠ – ١٥٠ مليون جنيه ذهبي.

إذا جمعنا هذه المبالغ فاننا نحصل على ماينوف عن مليار جنيه ذهبي، أي أكثر من قيمة مجموع رأس المال الثابت في جميع المؤسسات الصناعية الأوروبية في حوالي عام ١٨٠٠ . إن تدفق هذه المبالغ الهائلة من رأس المال إلى بلدان أوروبا التجارية في الفترة مابين القرن السادس عشر ونهـاية القرن الثامن عشر لم يخلق جواً ملائماً للتمويل الرأسمالي ول – « روح التعهد » وحسب ، وإنما مول في

حالات كثيرة مؤكدة تأسيس صناعات وشركات كبيرة أعطت الدفع الأول للثورة الصناعية (١).

هناك مقارنة تاريخية يمكن ان تشرح ضخامة هذا التمركز العالمي للثروة، الذي وجد عند بدء الثورة الصناعـــة. إنه لمن المعروف أن جميع الثروات في البلدان القديمة من الصحراء الكبرى إلى الراين والدانوب ثم من البحر الاسود الى الهند التي جمعت من الامبراطوريات المتتالية: المصـــرية فالبابلية فالفارسية فالاسكندرانية، قـــد تدفقت إلى روما ومولت لعدة قرون القوة العسكرية للامبراطورية الرومانية ورخاء الطبقة المسيطرة فيها. إن تمركزاً عالمياً مشابهاً للثروة حصل بين نهاية القرن الخامس عشر ونهاية القرن الثامن عشر، إذ أن اجزاء كبيرة من المعادن الثمينة المستخرجة في قارات الارض الخمسة (باستثناء الصين واليابان) تدفقت إلى أوروبا، ثم ازدادت هناك بواسطة محصولات تجارة العبيد وتشغيلهم، وبواسطة التجارة العالمية القائمة على مبادلة لامتساوية.

إن تدفق رأس المال الربوي والتجـــاري الى مجتمع يقوم بصورة



---

(١) Gaston Hartin, Histoire de l'Esclavage dans les Colonies françaises, Paris 1948, p. 98 - 91.

كل عودة (السفن التي كانت تتعاطى تجارة العبيد ـ المؤلف) كانت تؤدي في مجرى القرن الثامن عشر الى انشاء صناعات يدوية، مصافي، اقطان مصبوغة، مصابغ، معامل السكر ومشتقاته، والتي أدى تزايدها الى ازدياد المبيعات السلعية والى توسع الصناعة. وهكذا بنيت على سبيل المثال في نانتس في القرن الثامن عشر ١٥ مصفاة للتكرير، « معامل الصناعات اليدوية القطنية [...] مصنعان كبيران لمواد الصباغة، مصنعان لصناعة السكر ومشتقاته

لدراسة العلاقة بين الاستغلال « الأولي » للهند وبدء الثورة الصناعية في انكلترا انظر: Broob Adams: La loi de la civilasation et de la décadence. 1899. p. 375 - 380.

رئيسية على الاقتصاد الطبيعي ليس ظاهرة نموذجية خاصة باوروبا . لقد كانت أيضاً في العصور القديمة ، في بيزنطة ، في الدولة الاسلامية ، في الهند واندونيسيا وفي الصين واليابان ( قبل الاحتكاك بالمستعمرين الأوروبيين ) ، بل وفي بلاد الاتستيكيين (*) قبل - الكولومبية عشية ظهور الملاكين . وإن الآلية الاقتصادية لهذه العملية كانت بخطوطها العريضة هي نفسها كما في العصور الوسطى: تملك جزء من محصول الارض ومدخولات الدولة ( وأيضاً خزينة الدولة ) من قبل البورجوازية الربوية والمصرفية والتجارية . ولقد كان التراكم الأولي لرأس المال النقدي ضخماً وفي بعض الأحيان اكبر منه في اوروبا [1] . كما ان القاعدة التقنية للثورة الصناعية ( وهذا يعني المعرفة التقنية ، نظام الصناعة اليدوية ، امكانية بيع السلع في اسواق بعيدة الخ .. ) . كانت في بعض الحالات في تلك الحضارات متوفرة قبل توفرها في اوروبا .



رغم ذلك فانه ليس صدفة ان الثورة الصناعية حصلت بعد ذلك في اوروبا وليس في الحضارات الأخرى . ولقد اشار ماركس إلى أسباب ذلك في الأسس ، وإن كان لم يمحصها بشكل كامل ودقيق يجب البحث عن هذه الاسباب في العلاقة المختلفة بين سلطة الدولة والطبقة البورجوازية ( هناك نجد الأولى قوية جداً والثانية ضعيفة ؛ وهنا نجد الاولى ضعيفة والثانية قوية جداً ) ، الشيء

---

(١) بعض الأمثلة :لقد وجب على أرملة محسن ، وزير الخليفة المقتدر ، ان تدفع للخليفة ٧٠٠٠٠٠ ديناراً ذهبياً واحتفظت رغم ذلك بثروة ضخمة . اما الأمير الصيني هزيا الذي مات عام ١٤٤ قبل الميلاد ، فقد خلف كنزاً احتوى على ٤٠٠٠٠ « كاتيز » من الذهب . الكاتيز الواحد يساوي ٦٠٠ غ .

(*) الاتستيكيين : قبائل مكسيكية قديمة من السكان الاصليين ( المترجم ) .

الذي ادى هناك الى تراكم متقطع غير متتال وهنا الى تراكم متتال ومستمر . واخيراً يتعلق النمو غير المنتظم وغير المتساوي لرأس المال في الشرق والغرب بالاختلاف النوعي في الزراعة والاختلاف النوعي لنسبة الارض الزراعية والماء الى عدد السكان ، التي أدت هناك الى زراعة تقوم على السقاية وذات مركزية عالية في الفائض الاقتصادي ؛ اما هنا فلقد ادت الى زراعة البستنة القائمة على المزارع الصغيرة وإلى لامركزية عالية في الفائض الاقتصادي .

في نفس الوقت لايجوز ان نعطي تراكم رأس المال النقدي غير المتساوي في البلدان المختلفة اهمية اكثر من اللازم . هناك على الاقل حالة واحدة ، هي اليابان ، تبرهن على أنه بالرغم من التأخر بضع مئات من السنين الذي كان يعم عدداً من البلدان في القرن السادس عشر بالنسبة للتكون الرأسمالي في غرب اوروبا ، فإن القفز من التراكم الأولي لرأس المال النقدي إلى التراكم الأولي لرأس المال الصناعي كان ممكناً ، وهذا يعني أنه كان ممكناً لو لم تبدأ في هذه المرحلة بالذات، أي في بدء القرن السادس عشر ، عملية التمركز العالمي لرأس المال وبشكل صارم .

المأساة المزدوجة للبلدان المتخلفة تكمن في أنها لم تصبح ضحية عملية التمركز العالمية هذه وحسب ، وإنما بالاضافة إلى ذلك يجب عليها ان تحاول التغلب على تخلفها الصناعي ، أي أن تحقق التراكم الأولي لرأس المال الصناعي في عالم مغمور بالسلع الصناعية من الصناعة الناضجة في الغرب . وبكلمات اخرى: بينما أعطت السوق العالمية والاقتصاد العالمي تصنيع الغرب في الفترة مابين القرن السادس عشر والتاسع عشر وقبل كل شيء بواسطة تدفق الثروات الأرضية ورأس المال النقدي إلى غرب اوروبا ، حيث تحول هذا الى المنبع الاكثر اهمية للتراكم

الأولي لرأس المال الصناعي ، نقول اعطت دفعــاً هائلا ، فان السوق العالمية والاقتصاد العالمي اصبحا منذ نهاية القرن التاسع عشر العثرة الرئيسية في طريق تصنيع العالم الثالث ، وتماماً بنفس المقدار الذي تعرقل فيه التراكم الأولي لرأس المال الصناعي .

ان الموارد التي كانت متوفرة في مجتمعات المرحلة الاخيرة من العصور الوسطى وفي مرحلة بداية العصور الحديثة في اوروبا الغربية والتي تم على أساسها التراكم البدائي لرأس المال الصناعي متوفرة منذ القرن التاسع عشر في عديد من البلدان المتخلفة ومنذ القرن العشرين عملياً في جميعها . يمكننا اليوم وفي جميــع مايسمى بالبلدان المتخلفة ملاحظة الانحلال البطيء للمجتمعات العشائرية والقروية التقليدية والبسيطة ومن ثم الفصل البطيء والمتواصل للفلاحين عن الارض ، سواء بواسطة الطرد او بواسطة تراكم الديون او بسبب الضغط السكاني المتزايد على الأرض الزراعية . فلاحون كبار وتجار ومحتكرون ومرابون وسياسيون فاسدون يبتزون من الفلاحين ما يمكن ابتزازه . من الملاحظ ان المنبع الرئيسي للتراكم الأولي لرأس المال يتدفق في معظم بلدان العالم الثالث بفيض هائل ؛ ولكن هذا ينعكس في بؤس متزايد للفلاحين وفي جوع دوري أو دائم وبطالة على نطاق واسع وهجرة متزايدة من الريف تؤدي إلى بثور سرطانية من الاحياء الفقيرة في المدن الكبيرة للبلدان المتخلفة (١) .

---

(١) كتب اويفن بريو براشلسكي عام ١٩٢٥ يقول : انه حتى بعد تأمين وسائل الانتاج في البلدان المتخلفة تشكل المبادلة اللا متساوية بين المدينة والريف ( بين القطاع المؤمم في الصناعة والقطاع الخاص في الزراعة ) القاعــدة الرئيسية « للتراكم الأولي الاشتراكي » . ولكن أضاف انه يجب ان لا يرافق هذا فقر متزايد للفلاحين وانما تحسن في مستوى معيشتهم وبنفس المقدار الذي تزيد فيه انتاجية العمل الزراعي التي توزع=

لنأخذ الهند مثالاً وسنجد نموذجاً لجميع التحولات ، التي تعمل كرافعة لخدمة طبقة الرأسماليين المتشكلة ، وقبل كل شيء سنجد الحالات التي تنتزع فيها وسائل عيش الجماهير فجأة وبالقوة وتحول إلى بروليتاريا يقذف بها في سوق العمل. إن انتزاع ملكية الأرض من المنتجين الزراعيين ، الفلاحين ، يشكل الاساس لهذه العملية »[1] . يقدر الاستاذ بوني ان القسم من سكان القرى الهندية البالغين الذكور الذي لم يعد يملك الأرض قد ازداد من ٧,٥ مليوناً في عام ١٨٨٢ الى ٣٥ مليونا في عام ١٩٣٣ والى ٦٨ مليونا في عام ١٩٤٤[2] . وبأية سرعة تم انتزاع الملكية ، هذا مايظهر واضحاً من ان النسبة المئوية لعائلات العمال الزراعيين الهنود الذين لايملكون اية ارض قد صعدت بين الاعوام ١٩٥٠/٥١ و ١٩٥٦/٥٧ من ٥٠٪ الى ٥٧٪ وان النسبة المئوية للعمال الزراعيين الذين تراكمت عليهم الديون قد صعدت ضمن نفس الفترة من ٤٥٪ الى ٦٤٪ . ولكي نستوعب ذلك علينا ان نعلم ان جماهير العمال الزراعيين يشكلون اكثر من ثلث ( تقريباً خمس ) مجموع سكان القرى الذكور إن ٤٩٪ من المزارع الذي اقل من ٥ آكر (٢هكتار المترجم ) وهذا يعني انها تعيش على حافة الدمار .

لقـــد قادت هذه العملية في أوروبا الغربية الى شراء الملكيات الصغيرة



---

=ثارها بعد ذلك بين الفلاح والمدينة . ان اهتمام ستالين المتأخر بالصناعة ( وايضاً ببناء اول مصنع للجرارات الزراعية ) وبالمقابل اندفاعه السريع في تحويل الزراعة الى ملكية جماعية ، حطم العلاقات النسبية الضرورية هذه وسبب بؤس الفلاحين الجماعي والهبوط المريع في انتاجية العمل الزراعي ، الشيء الذي ارغم الاقتصاد والشعب السوفييتيين على تقديم تضحيات كان يمكن تحاشيها ولمدة تقرب من ثلاثين عاماً .

(١) رأس المال ، ١ ، ص . ٦٨١ .

(٢) Peoy. A. Bonné , Studies in Economic Development. London 1954 , p. 173.

بواسطة الكبيرة والى بؤس الفلاحين وإلى افقار جماهيري واسع من جهة ، ثم إلى تكون رأسمال صناعي وإلى تزايد مستمر في عدد المحلات الصناعية من جهة أخرى. أما في البلدان المتخلفة فلم تتكرر بشكل كامل سوى الجهة الأولى من العملية ، الجهة الثانية اعادت نفسها فقط بشكل جزئي وبحجم غير كاف أبداً . يجب إذن أن نبحث عن الأسباب التي جعلت التزايد السريع للتراكم البدائي لرأس المال النقدي لم يؤد او يؤد بشكل غير كاف الى تصنيع فعلي في العالم الثالث. إن بحث البناء الهيكلي العام الاجتماعي والاقتصادي للعالم الثالث والصيغة الخاصة لاندماجه في السوق العالمية الرأسمالية يمكنان من الاجابة على هذا السؤال .

ان إدخال البلدان المتخلفة إلى السوق العالمية قدتم بمبادرة رأس المال الغربي الذي لم تكن لديه، في معظم الحالات ، الإمكانية – نقص في الطلب في العالم الثالث – أو الإهتمام المصلحي – عدم الرغبة في خلق منافسة لصناعته – ليبني هناك صناعة تحويلية حديثة ؛ كما ان سوق البيع التي أراد رأس المال هذا ان ينتج لها السلع في البلدان المتخلفة تقع بصورة رئيسية خارج هذه البلدان نفسها . وهكذا اقيمت فقط مشاريع تتفق مع الصناعة الرأسمالية للغرب أو تكملها : انتاج مواد أولية ومواد غذائية .

على هذا الأساس حصل في السوق العالمية توزيع نوعي للعمل ذي علاقة محدودة جداً بالشروط الجغرافية والمناخية ويلبي في الواقع فقط حاجات رأس المال الغربي في مرحلة معينة من التطور التاريخي[1] . اذ أن حصر القطاعات



---

(١) يمكن ان يكون هذا الاهتمام اليوم قد تغير بمقدار ماتتحول صادرات البلدان المصنعة اكثر واكثر إلى آلات وتجهيزات صناعية ، والتي يشترط استيرادها من قبل البلدان المتخلفة تصنيع هذه البلدان . وهكذا نتج تناقض بين مصالح صناعة الآلات ومصالح صناعة السلع الاستهلاكية في البلدان الغربية بالنسبة « لمساعدات التنمية»

الاقتصادية « الحديثة » لما يسمى بالبلدان المتخلفة في الحقول الزراعية والمناجم واستخراج البترول أدى إلى ظاهرة انتاج نوع واحد من المحصولات الزراعية أو المنتوجات الصناعية ، الشيء الذي يجعل العالم الثالث متعلقاً بتأرجحات الاسعار في السوق العالمية وبتروستات المواد الأولية الكبيرة التي تسيطر على الثروات الدفينة لهذه البلدان .

هذا التوزيع العالمي للعمل المفروض من طرف واحد يؤدي من جهة إلى جفاف منبع هام للتراكم البدائي لرأس المال الصناعي في ما يسمى بالبلدان المتخلفة : ألا وهو الجزء الرئيسي للقيمة الزائدة المنتجة في نفس البلد . هذا الجزء يُحصل عليه في السوق العالمية ، عند البيع ، ولا يعود أبداً إلى بلد الانتاج ( مثلاً عندما تتمكن التروستات بناء على صيغ قانونية معينة من توزيع الربح بين الشركات المنتجة وشركات النقل وشركات البيع والتي هي كلها شركات فرعية تابعة لنفس المجموعة المالية ) ، أو أنه يتدفق ثانية بعد عودة قصيرة إلى البلد المتخلف على صيغة أرباح أو فوائد او تعويضات عمالة مع البنوك وشركات التأمين الخ . إلى الغرب [1] .

إنه يؤدي من جهة اخرى إلى بناء هيكلي للتجارة العالمية قائم على مبادلة لامتساوية . وحسب نموذج حلله ماركس في المجلد الثالث من كتاب رأس المال بطريقة كلاسيكية : « رساميل محولة في التجارة الخارجية تحصل على نسبة أرباح أعلى ، لأن البضائع المزاحمة مصنوعة في بلدان ذات وسائل انتاج متخلفة ، الشيء

---

(١) مثال الهند يوضح المصاعب التي تسببها تكاليف الديون الجارية لميزان المدفوعات في البلد المتخلف : في سنة ١٩٦٦ بلغت هذه التكاليف الجارية ٢٠٪ من قيمة مجمل صادرات الهند ؛ وعند نهاية السنة الرابعة للخطة الخمسية ستبلغ هذه التكاليف ٢٨٪ من القيمة المذكورة .

الذي يؤدي إلى ان البلد المتقدم يبيع بضائعه باسعار أكبر من قيمتها وبشروط أفضل من تلك التي تحصل عليها البلدان المزاحمة [ ... ] . يسترد البلد المستفيد في عملية المبادلة عملاً اكثر مقابل عمل أقل وفي نفس الوقت يتم تملك هذا الفرق ، هذا الفائض ، كما هو الأمر عند المبادلة بين العمل ورأس المال بصورة عامة من قبل طبقة معينة »[1] .

إن التحليلات المعاصرة للآثار الخيفة التي ولدها التطور السلبي لـ «شروط التبادل التجاري» بالنسبة للبلدان المتخلفة تؤكد عملياً هذه التوقعات الماركسية . إذ ماذا يعني تطور «شروط التبادل التجاري» لغير صالح البلدان المتخلفة من وجهة نظر هذه البلدان سوى أن عملاً أكثر واكثر مصروفاً في انتاج سلع أولية يجب أن يصدر من البلدان المتخلفة لكي تستطيع هذه ان تشتري نفس الكمية من السلع المصنعة . لم يزل إذن التبادل التجاري العالمي بين بلدان ذات درجات متفاوتة في التطور الصناعي يقوم على مبادلة لقيم لامتساوية ؛ تتملك البلدان المصنعة بواسطتها قسماً من القيمة الزائدة المنتجة في البلدان الفقيرة[2] .



إذن قبل ان يظهر مالك النقد في بلدان العالم الثالث على المسرح يكون قسم كبير من مقدار التراكم الممكن قد تدفق من هذه البلدان إلى البلدان الغربية وفقد بالتالي قيمته بالنسبة لعملية التراكم الفعلية . أن تكون هذه الخسارة أكبر بكثير من مجموع ما يقدم لجميع بلدان العالم الثالث من «مساعدات تنمية» وأن تكون بناء على ذلك «مساعدات التنميـــة» هذه لا تخدم قطعاً التنمية

(١) رأس المال ، الجزء الثالث ، ص ٢١٨

(٢) اننا نقول «بلدان مصنعة» ولانقول «بلدان رأسمالية» لأن البلدان الاشتراكية تطبق هذه المبادلة اللامتساوية عندما تعقد صفقات تجارية على اساس اسعار السوق العالمية .

الصناعية ، وانما فقط تمويل تصدير البلدان المصنعة إلى البلدان المتخلفة ( وايضاً تمويل ضمانات اجتماعية معينة ضد الثورات الاجتماعية ) ، كل هذا شيء لا يحتاج إلى الشرح المفصل . إن الأرقام تتكلم لغة واضحة . فقط خلال المرحلة الممتدة من عام ١٩٥٠ إلى عام ١٩٦٠ انخفض نصيب البلدان المتخلفة من التجارة العالمية من ٣٠٪ إلى ٢٠٫٤٪ ؛ وكان السبب الرئيسي في ذلك هو التطور السلبي لـ « شروط التبادل التجاري » ، إذ أن اسعار المواد الأولية الوسطية كانت عام ١٩٦٢ أقل منها عام ١٩٥٤ بمقدار ٣٨٪ ، الشيء الذي أدى بالنسبة للبلدان المتخلفة إلى خسارة مادية مقدارها ١١ مليار دولار — مقابل ٨ مليار دولار من « مساعدات التنمية » التي قدمت للبلدان المتخلفة خلال العام المذكور(١). عندما يؤدي رغم ذلك قسم من « مساعدات التنمية » إلى نشوء صناعات تحويلية جديدة ، فإن هذا لا يمكن اعتباره إلا كنتاج جانبي للسياسة العامة ، كنتاج جانبي يصطدم دائماً بنقد حاد في الدوائر المالية الغربية .

رغم هذا يظهر مالك النقد في العالم الثالث ذاته على المسرح . نحن نعلم أن التراكم الأولي لرأس المال النقدي يتقدم بدون انقطاع . لكن جزءاً منه ( أو جزءاً من القيم ، التي تظهر خارج البلد على شكل رأسمال إضافي ) هو على كل حال مفقود بالنسبة للاقتصاد الوطني . أما ما يتبقى فهو رغم كل هذا كاف لأن يمكن من عملية تصنيع متسارعة . وعندما لا يحصل رغم ذلك هذا الشيء ، فإنه لا يحصل فقط لأن ملاك النقد المحليين ، وتحت الشروط الاجتماعية والاقتصادية المعطاة ، ليس لديهم أي اهتمام لأن يحولوا رأسمالهم النقدي إلى رأسمال صناعي .

---

(١) United Nations Department of Economic and Social Affairs, World Economic Survey 1962 , 1. The developing countries in World Trade, p. 2 - 3

لفهم هذه المشكلة لا بد من إشارة قصيرة إلى شيئين : إلى الجاذفات وامكانيات ربح رأس المال الصناعي في البلدان المتخلفة من جهة وإلى الجاذفات وامكانيات ربح تحويلات رأسمالية ذات نوعية اخرى ( غير صناعية ) في هذه البلدان من جهة أخرى .

العثرات الرئيسية التي تقف في طريق تطور سريع لصناعة خاصة مربحة هي فقر البلد الكبير ، النقص الكبير في الطلب ، كون مجموعات كبيرة من السكان تعيش على هامش أو خارج الاقتصاد النقدي (لما يسمى «القطاع الحديث» للاقتصاد ) ، مزاحمة منتجات البلدان المصنعة الأرخص والاكثر جودة ، عدم وجود شبكة مواصلات حديثة تربط القرية بمراكز الانتاج الصناعي الكبيرة ، الخ ... تحت هذه الشروط لا يتضمن انشاء صناعات مجازفة كبيرة وحسب ، بل انه بدون دعم الدولة وحمايتها شبه مستحيل(١) .



من جهة أخرى توجد استثمارات تعطي ربحاً اكبر واكثر ضماناً من انشاء مؤسسات صناعية . وهذا يصح بالدرجة الأولى بالنسبة لشراء واحتكار الأراضي . إذ أن الضغط الكبير الناتج عن التزايد السكاني السريع والبطالة في الريف يؤديان إلى ارتفاع مستمر لآجارات الأرض الزراعية . كما أن النزوح من الريف إلى المدينة والتوسع السريع للمدن الكبيرة يؤديان إلى ارتفاع مستمر في أسعار أراضي البناء في المدن . بالاضافة إلى ذلك فان طريقة المزارع الكبيرة

---

(١) نفس الشيء يصح جزئياً ايضاً ، ان لم يكن بالنسبة للصناعات الكبيرة ، فبالتأكيد بالنسبة لبدايات الصناعات اليدوية في البلدان الغربية . ولكن مع الفرق الحاسم وهو ان هذه الصناعة « الجديدة » في البلدان المتخلفة ترى امامها اليوم سوقاً عالمية مشبعة .

المعتمدة على الآلة تعطي محاصيل كبيرة (١). وهذا يعني ، وطالما ان الشروط الاجتماعية الحالية قائمة ، أن مردود الرساميل المستثمرة على هذا الشكل (في الأرض) سيبقى أكبر من مردود المؤسسات الصناعية ، بالاضافة إلى أنها وعلى عكس المؤسسات الصناعية تكاد تكون خالية من المجازفة .

إن امكانيات مشابهة تفتح أمام مالكي النقد في البلدان المتخلفة في صفقات الاستيراد والتصدير وفي القروض النقدية وفي مجال البنوك ، هذا بغض النظر عن تجارة التهريب وعن الصفقات التجارية العالمية الكبيرة التي تقوم بها «البورجوازية الصعلوكة» ، ذات النفوذ الواسع نسبياً في العالم الثالث . ومما لاشك فيه ان المجازفة هنا أكبر منها في الصفقات غير المنقولة أو في صفقات شراء الأراضي الزراعية ؛ ولكن الربح الكبير في تلك يعدل ضخامة المجازفة ويمكن من تحويل تلك الصفقات غير المشروعة إلى صفقات مشروعة . إن علاقات كهذه كانت بدون شك موجودة في اوروبا الغربية في مرحلة التراكم البدائي لرأس المال الصناعي ؛ كما كانت موجودة بشكل أوسع في اوروبا الشرقية وفي بلدان حوض البحر المتوسط في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، ولكن الحالة الاجتماعية العامة ساعدت هنا على تحول «البورجوازية الصعلوكة» إلى أسياد صناعيين ، على كل حال في منطقة غرب اوروبا ؛ وهي تؤثر اليوم في البلدان المتخلفة بشكل معاكس تماماً .

ان الفرق بين وجهة النظر الماركسية والشومبيترية في التصنيع الرأسمالي

---

(١) ان مايسمى « استراتيجية التغذية الجديدة » التي اعلنت عنها الحكومة الهندية بعد موجات الجوع في عام ١٩٦٦ تركزت كلية على تطوير زراعة كثيفة بواسطة الفلاحين الاغنياء .

تظهر هنا بكل وضوح . كلاهما يركز على دور التمويلات المنتجة عند دراسة التطور الاقتصادي في النظام الرأسمالي في مركز ثقل بحوثه . ولكن في الوقت الذي يعمم فيه شومبيتر عامل « التجديد » ويعتبره العامل المركزي للتطور الاقتصادي (١) ينتزع عاملاً من عوامل دفع المتعهدين إلى العمل من مجموعة العوامل المترابطة لتراكم رأس المال ويضع بذلك حججه كاملة في خطر ان تنزلق في سكة ما يسمى « سيكولوجية الشعوب ».

لقد اهتمت بحوث عديدة بهذا الموضوع محاولة شرح اسباب ان هذا الشعب او ذاك يظهر « ميولاً » اكثر او أقل للقيام بعملية التعهد ، لكي « تشرح » على هذه الطريقة تأخر عديد من البلدان في التصنيع ، ذلك التأخر الذي يصبح مع الزمن اكثر وضوحاً . إلى أية نتائج يجب أن تقود هذه « الشروح » يوضح بشكل جيد هو مثال الصين ، حيث نجد شعباً أعطى منذ مئات السنين العديد من بلدان شرق آسيا القسم الأكبر من طبقة تجارها ، الذين اصبح نشاطهم وموهبتهم التقنيه مضرب الأمثال ، والذين اعطت مبادرتهم الصناعية في حالات معينة كما في هونغ كونغ وهاواي نتائج رائعة ، ولكنه رغم ذلك في لحظة انفجار الحرب الصينية – اليابانية لم يقم ولا بأية محاولة لتصنيع بلاده . ان يراد شرح هذا التأخر من « فقدان روح التعهد » فانه خطأ جلي (٢) . فقط بحث تلك الشروط

(١) Josef A. Schumpeter, The Theory of Economic Development, New York 1961. p. 65 - 94.

(٢) ايضاً مثال اليابان غني بالعبر . عندما بيعت المنشآت الصناعية الحكومية عام ١٨٨٠ كان قسم من الاقطاعيين القدامى هو الذي اشترى هذه المنشآت بالمبالغ التي حصل عليها كتعويض عن الممتلكات وسندات الدولة التي فقدها وساهم بذلك بشكل حاسم في نمو الرأسمالية اليابانية .

الاجتماعية – الاقتصادية التي ساعدت على تراكم أولي لرأس مال نقدي وليس على تراكم أولي لرأس مال صناعي تمكن من فهم عدم نشوء تصنيع شامل في العالم الثالث .

تظهر في الجزء من النظرية الاقتصادية المعاصرة ، الذي يبحث في النمو الاقتصادي للبلدان المتخلفة مشكلة مايسمى التراكم الأوربي لرأس المال بصيغة المقولة التي تعتمد على مايسمى بـ « دائرة الفقر الشيطانية » دخل الفرد المنخفض يمكن فقط من وجود قسط توفير منخفض وهذا بالتالي يجعل قسط التحويل منخفضاً مما لا يسمح بزيادة ملحوظة في دخل الفرد . اذن : دخل قليل ← توفير قليل ← تمويل قليل ← دخل قليل . لهذا يصعب خروج البلدان المتخلفة من فقرها [1] . هذه المقولة تفسر الشيء بنفسه ، البلدان المتخلفة فقيرة لأنها فقيرة ، الشيء الذي لا يمكن اعتباره غنياً بالحكم التي تعطينا استنتاجات مفيدة .



بول . آ . باران قاد الحملة الرئيسية ضد هذه المقولة بعد ان شكك بها نوركزه . لقد برهن نوركزه أن السبب الرئيسي لفقر البلدان المتخلفة هو البطالة – وبشكل أدق : البطالة الكمية والنوعية [2] . لقد اكتشف بذلك

---

(١) W. W. Rostow, The Stages of Economic Growth, 1962 p. 39.

يعرف روستو « الاقلاع » على أنه زيادة قسط التشغيل من ٥٪ الى ١٠٪ .
انظر ايضاً :

W. A. Lewis, Theories of Economic Growth, London 1963, p. 236
الذي يرفض ايضاً نظرية « الدائرة الشيطانية للفقر » .

(٢) Ragnar Nurkse, Problems of Capital Formation in Underdeveloped Countries, Oxford 1953, p. 35 - 38

واحداً من مفاتيح الاستراتيجية الفعالة للتطور الاقتصادي السريع . ثم أضاف باران للاكتشاف النوركزي اكتشافاً هاماً ايضاً ، عندما أكد أن « فائض الانتاج الاجتماعي » في البلدان المتخلفة في غالب الاحيان يشكل نسبة مئوية من الدخل القومي ليست اصغر بل اكبر منها في البلدان المصنعة (١) . الصعوبة الرئيسية في تصنيع البلدان المتخلفة تكمن على هذا الأساس ليس في افتقارها إلى الموارد – وبتعبير آخر في افتقارها إلى رأس المال النقدي – وإنما في الشروط الاجتماعية – الاقتصادية التي تقف عائقاً في وجه تعبئة فائض الانتاج الاجتماعي المتوفر واستثماره بشكل منتج في الصناعة .

تركيب فرضيتي نوركزه وباران يمكن أن يوضع وبسهولة حسب مفهوم النظرية الماركسية في التراكم الأولي لرأس المال . تراكم أولي لرأس المال النقدي يتحول الى تراكم أولي لرأس المال الصناعي فقط عندما يشكل انحلال الاقتصاد الطبيعي في الريف وتعميم الانتاج السلعي والقوة السياسية للطبقة البورجوازية ودور الدولة كأداة دفاع لهذه الطبقة ضد المزاحمين الاجانب ( في هذه الأيام بالدرجة الأولى ضد البلدان المصنعة ) ، بشكل مجموعة شاملة متداخلة من الشروط الاجتماعية – الاقتصادية التي تساعد على التصنيع . أما اذا لم تتشكل هذه المجموعة من الشروط الاجتماعية – الاقتصادية فان التغير الأكثر احتمالاً هو أن الرساميل النقدية والضخمة الى حد ما ستتسرب في قنوات جانبية عديدة . امكانية التصنيع موجودة ، الموارد متوفرة ، ولكن الطبقة الاجتماعية ، التي ، وفي اطار النظام القائم ، لديها القوة الضرورية والمصلحة والاهتمام الملحين لأن تحاول النفاذ في هذا



(١) Paul A. Baran, The Political Economy of Growth, Monthly Review Press, New York 1957, p. 227.

الاتجاه ، غير موجودة . ولكن إذا أمكن تجاوز النظام القائم وسيطرت الطبقة العاملة معتمدة على الفلاحين الفقراء ومثقفي المدن على القوة السياسية ، فإنها ستكون بدون شك قادرة على ان تعبيء وتركز قوة العمل المتوفرة والمهملة بجزء منها وفائض الانتاج الاجتماعي والمصروف بجزء منه بدون فائدة ، الشيء الذي يمكن من الاسراع في التصنيع . ان الموارد الاقتصادية المتوفرة ساعة الانطلاق لم تتغير ، فقط الشروط الاجتماعية أطيح بها . هذا يثبت أن العثرة الرئيسية في طريق التصنيع لاتكمن في التأخر الاقتصادي او في الفقر وانما في البناء الهيكلي الاجتماعي .

بحوث روستو حول شروط « الاقلاع » الصناعي تراعي جزءاً من هذه العوامل ولكنها تقلل من قيمة الأخر وتأتي بذلك الى استنتاج غيروافٍ :تمركز على الأقل في المرحلة الأولى ، و يتوقف على أولئك الذين يريدون ان ينشئوا اقتصاداً حديثاً » [1] . السؤال المركزي هو عما اذا كانت ارباح هؤلاء « المحدثين » وتحت الشروط الاجتماعية القائمة ومع العلاقة القائمة مع السوق العالمية الرأسمالية ستستعمل بشكل رئيسي في انشاء صناعات ، أم انها ستصرف في اعمـــال لاتمت إلى التصنيع بصلة كبناء العمارات والفنادق الحديثة

---

(١) W. W. Rostow. ibid. p. 56

W. A. Lawis, ibid. p. 235

« هذا يعني ان التفسير الأساسي « لثورة صناعية » ما ، أي لتسارع مفاجىء لنسبة التكون الرأسمالي، يكمن في ازدياد مفاجىء لامكانية الربح النقدي . لويس يقع في نفس الخطأ بوضع تجميع رأس المال النقدي وتجميع رأس المال الصناعي في نفس المقام. ولكن ماذا يحدث عندما يصرف هذا « الازدياد المفاجىء في امكانية الربح النقدي» خارج القطاع الصناعي ؟

الضخمة [1] ، أو في انشاء شركات استيراد حديثة ، او في شراء اراض زراعية واسعة أو أنها ستجمد في البنوك السويسرية ؛ هذا السؤال يبقى بدون جواب .

روستو يتهم ماركس بالجزئية في الحكم على الانسان ؛ إنه يرى الانسان على أنه عقلاني في تصرفاته ويطمح إلى تحقيق الحد الاعلى من الربح وحسب ، بينما ترى نظريته ، نظرية روستو ، الانسان على أنه قبل كل شيء طموح إلى القوة ، إلى وقت الفراغ ، إلى المغامرة وإلى استمرارية الوجود والطمأنينة [2] . طبعاً لم يكن في نية ماركس يوماً ان يضع معارف انتروبولوجية حول داالجوع إلى الربح » عند الانسان . إنه اكد فقط ان الاقتصاد النقدي والسلعي المعمم في المجتمع البورجوازي الذي لم يرده ماركس ولم يرغب ببقائه يقود إلى جشع الثروة بشغف شديد يحدد قبل كل شيء تصرفات مالكي رأس المال . هؤلاء كانوا مجبرين على اتباع الوصية « راكم ، راكم ! » اذا أرادوا ان لايقعوا في خطر أن يطحنوا تحت عجلة المزاحمة .

لا نريد هنا ان نشرح ما اذا كانت مثل هذه التحليلات للمجتمع البورجوازي الذي أراد ماركس تجاوزه بسبب ما بدا له في هـذا المجتمع من لا انسانية ، وبسبب ما فيه من جشع عام إلى الثروة المادية ، يؤدي إلى نتائج لا انسانية تنطبق على الصورة التاريخية لهذا المجتمع في القرن التاسع عشر وللصورة

---

(1) يوجد في بيروت العديد من الفنادق والابنية الشاهقة الفارعة التي بناها مشايخ البترول العرب واضعين نقودهم موضعاً « أميناً » . لم تنتج عن هذا النوع من التثمير حتى ولابطريقة غير مباشرة أية مؤسسات صناعية كبيرة .

(2) W. W. Rostow, ibid. p. 149

الاجتماعية في القرن العشرين . ان الشيء الذي لم يفهمه روستو كما يبدو هو أن « السلطة ، زمن الفراغ ، والمغامرة واستمرارية الوجود والضمان » هي ، إن لم يكن بالنسبة لكل فرد، فللطبقة البورجوازية بكليتها بالتأكيد، تعني بشكل رئيسي تراكم رأس المال وتمتين الثروة الخاصة .

هناك فعلاً طرق مختلفة للصناعة الحديثة : روسيا والصين برهنتا على ذلك. وهناك طرق غير معروفة بالنسبة لنا ربما ستسلكها غداً بعض البلدان المتخلفة . ولكن هناك شيء مؤكد : ان التصنيع في اقتصاد تسيطر عليه طبقات المجتمع التي ترتكز سلطتها على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وعلى تكديس الغنى الشخصي فقط ممكن عندما يوفر الوضع الاجتماعي الاقتصادي العام لهذه الطبقات مصلحة واهتماماً ملحين على التصنيع . لقد وصف ماركس الترابط الشكلي الذي يتم فيه القفز من تراكم رأس المال النقدي إلى تراكم رأس المال الصناعي كما يلي : « في البدء كانت التجارة مقدمة ضرورية لتحويل محلات الحرف اليدوية ومحلات الأعمال اليدوية الريفية والزراعات الاقطاعيـــة الى مؤسسات رأسمالية . لقد طورت المنتوج الى سلعة ، من جهة حيث خلقت له سوقاً ، ومن جهة اخرى حيث أدخلت سلع مشابهة واعطت الانتاج مواد أولية ومساعدة جديدة وفتحت بذلك فروعاً انتاجية جديدة قامت منذ البدء على التجارة سواء في السوق المحلية والعالمية أو على شروط الانتاج التي نشأت من السوق العالمية »[1] .

اذا لم تكتمل العملية الموصوفة في الجملة الأخيرة ـــ نتيجة لمزاحمة البضائع الأجنبية ولضيق السوق الداخلية ـــ فان عملية التراكم في الصناعة سوف تشل أو

---

(١) رأس المال III ، ص ٣٢٠

أنها ستسير بخطى وئيدة جداً بشكل لايمكن التكلم معه عن تصنيع فعال . اذا وقفت في طريق الطبقات الاجتماعية المسيطرة عثرات اكبر وكان لديها في نفس الوقت عديد من امكانيات الانحراف عن هذه العثرات فان « التحديث » وهدم البناء الهيكلي الاقطاعي أو القبلي للمجتمع والاقتصاد سيقود الى تراكم أولي لرأس المال النقدي ولكن ليس الى تراكم أولي لرأس المال الصناعي[1] . هذا الفرق يلمسه اليوم كثير من الشعوب ويحس بمرارته ما ينوف عن مليار من البشر . إن نظرية الاقتصاد الماركسية قد عرفته واوضحته منذ ما ينوف عن قرن من الزمان .



(١) كتب بول بيروخ حول هذا الموضوع عدة كتب ( من بينها :
Diagnostic de l'évolution économique du tiers - mond 1900 - 1966 Paris 1966 ) .

يقول بيروخ ان ارتفاعاً سريعاً في الانتاجية الزراعية، وهذا يعني « ثورة زراعية» فعلية، يجب ان يسبق الثورة الصناعية كما تم فعلا في الغرب . هذا يتفق تماماً مع رأي ماركس ( رأس المال ، I ، ص ٧١٠ ) . يرى بيروخ أيضاً ان نقطة الضعف الرئيسية في اقتصاد العالم الثالث تكمن في ان الانتاجية الزراعية الوسطية لاتعادل سوى . ه٪ منها في الغرب عشية الثورة الصناعية . اذا صح هذا القول ونتج عنه مبرر آخر لتثمير رأس المال المتوفر هناك في الزراعة اكثر منه في الصناعة فان هذا سيدعم حجتنا . انه لمن الواضح ان مثل هذه المعدات الرأسمالية سوف تقضي على العديد من امكانيات التشغيل المتوفرة بدل ان تخلق امكانيات جديدة . وهكذا تؤدي الى زيادة الشقاء في العالم الثالث ليس بشكل نسبي فقط بل وبشكل مطلق ايضاً . لقد انخفض فعلا الدخل الحقيقي للعمال الزراعيين الهنود بعد تطبيق قانون الاصلاح الزراعي من قبل حزب المؤتمر لأن ، وهذا أحد الاسباب ، هذه الاصلاحات اعطت الفلاحين الاغنياء المستغلين مزيداً من ادوات الزراعة الحديثة .

# حول تأميم الملكية الأجنبية في الجهاز المصرفي الليبي

د. أحمد مراد

قرر مجلس قيادة الثورة الليبي ، في أواخر العام الماضي ، تأميم الحصص الأجنبية في المصارف العاملة في ليبيا ، وأصدر بهذا الخصوص قانوناً حظر بموجبه على الشركات التجارية غير المملوكة بالكامل لليبيين مزاولة الأعمال المصرفية ، على أن تؤول الى الدولة ملكية الأسهم التي يملكها غير الليبيين في خمس مصارف .

ونص القانون على أن تؤدي الدولة الى ذوي الشأن تعويضاً عن قيمة ما آل اليها من اسهم ، وأن تنشأ شركة مساهمة باسم « مصرف الوحدة » يتكون رأسمالها من صافي هذه المصارف وهي : مصرف النهضة العربية ، ومصرف شمال افريقيا ، والمصرف التجاري ، ومصرف القافلة الأهلي ، والشركة المصرفية الافريقية .

فما هي خلفيات هذه العملية ، وما هو محلها بين اجراءات الثورة الليبية ، وكيف تجري متابعة تطوير النظام المصرفي الليبي ؟

## أولاً ــ نشوء وتطور النظام المصرفي الليبي :

تأسست اولى المصارف في ليبيا في مطلع القرن الحالي . وقد تم ذلك بعد تطور النظام الاستعماري . وتبعاً لذلك كانت اولى هذه المصارف فروعاً للمصارف الأوروبية التي تطورت الى مستوى عالمي . ولما كانت ايطاليا بالذات تبغي الحاق ليبيا بها ، فقد كانت الفروع المصرفية في ليبيا ايطالية بصورة خاصة .

لقد أنشأ مصرف روما فرعاً له بطرابلس عام ١٩٠٧ ، ومع الغزو الايطالي للبلاد ، عام ١٩١٢ ، نشأت في عامي ١٩١٢ و ١٩١٣ ، اثر الحرب التركية الايطالية ، ثلاثة فروع مصرفية هي : سيشيليا وايطاليا ، ونابولي . ثم جرى تأسيس فروع مصرفية اخرى بعد اتمام اخضاع البلاد عام ١٩٣٠ .

واثر انتصار الحلفاء في معركة العلمين ، واحتلالهم البلاد ، اقفلت المصارف الايطالية وافتتح فرع لبنك باركليز البريطاني عام ١٩٤٣ . ولم يكن في البلاد أي مصرف ليبي حتى ذلك الوقت (١) .

وتتألف ليبيا من ثلاثة أقاليم : طرابلس وبرقة وفزان . وبعد احتلال الحلفاء البلاد خضعت طرابلس وبرقة لحكم بريطانيا ، كما خضعت فزان لحكم فرنسا . وقد الحقت هذه الأقاليم ، مصرفياً ومالياً ، بالدولة المحتلة ، وعليه حل الجنيه المصري ، وكان نسخة عن الجنيه الانكليزي ، محل الليرة الايطالية . وخول مصرف باركليز سلطات مصرف الاصدار . ووضعت السلطات الفرنسية الفرنك الجزائري في التداول ، وكان نسخة عن الفرنك الفرنسي . وهكذا تم

---

(١) د . عبد المنعم البيه : المصارف في ليبيا ، كيف قامت وكيف تليبت ، الاقتصاد العدد ١ ، ٧ .

تقسيم البلاد ووضعت بين أقاليمها حواجز جمركية وقيود لمراقبة النقد . وظل هذا الحال حتى عام ١٩٤٧ حيث اقيمت وصاية هيئة الأمم المتحدة على البلاد . ومن ثم اعلن استقلالها عام ١٩٥١ .

ولم يكن بالامكان نشوء نظام مصرفي وطني في البلاد في هذه الفترة بسبب التبعية الاستعمارية والاقتصادية والمصرفية . كما لم يكن بالامكان تطور الفروع المصرفية الاجنبية تطوراً فائقاً بسبب التخلف الاقتصادي في البلاد. وعليه اقتصر النظام المصرفي على المصارف الأجنبية ، واقتصر دور هذه المصارف بصورة أساسية على تمويل عمليات التجارة الخارجية ، والسيطرة على النظام النقدي للبلاد .

ومن المعروف أن النظام المصرفي الرأسمالي الحديث يتألف من :

— مصرف مركزي يقف على قمة الجهاز المصرفي .

— مجموعة من المصارف التجارية تقوم بأعمال التمويل القصير الأجل ، وتسير في فلك المصرف المركزي ، وتشكل أساس السوق النقدية .



— عدد من المصارف المتخصصة في التسليف العقاري والزراعي والصناعي تلعب دوراً هاماً في السوق المالية .

وقد كان النظام المصرفي الليبي مختلا الى حد شديد . فقد كان يقتصر على عدد ضئيل جداً من المصارف التجارية ولم يكن هناك مصرف مركزي ولا مصارف متخصصة . وكانت المصارف التجارية عبارة عن فروع لمصارف اجنبية . ولم تكن الفروع منتشرة في البلاد . وكان أحدها يقوم بسلطات الاصدار ويربط العملة الليبية بالجنيه الانكليزي . وكانت المصارف تقدم الخدمة المصرفية للاجانب المقيمين في البلاد والأقليات اليهودية والايطالية وغيرها . وكانت الفروع المصرفية

لتعبيء المدخرات وتضعهـــا تحت تصرف المستعمرين . وكانت المصارف تمول التجارة الخارجية بالذات فتزيد في ارتباط الاقتصاد الليبي بالاقتصاد الانكليزي والايطالي .

وفي عام ١٩٥١ استقلت البلاد سياسياً . وجلب الاستقلال معه تغييرات عديدة للاقتصاد الليبي . فقد اتسعت اعمال التنقيب عن البترول وتطور استخراجه بعد صدور قانون البترول الليبي عام ١٩٥٥ والتهاب الشرق العربي بحرب السويس عام ١٩٥٦ ،واغلاق قناة السويس ، وتعطيل انابيب بترول العراق والسعودية ، وازداد ورود رؤوس الأموال الاجنبية الى البلاد . وتطورت الصناعات الوطنية بعد صدور قانون تنمية الصناعات الوطنية عام ١٩٥٦ ، واصلاح نظام التعرفة الجمركية عام ١٩٥٨ . واتسعت الزراعة من خلال الحماية وارتفاع مستوى الحياة وتطور الصناعة .

وبعد الاستقلال السياسي صدر قانون النقد الليبي ، وأصبح « الجنيه الليبي » الوحدة النقدية الوطنية . ولكن القانون لم يغير في محتوى النظام النقدي . فقد اقيمت « لجنة النقد الليبيـــة » في لندن وكانت تتألف من رئيس انكليزي وعضوان آخران انكليزيان ، وعضو فرنسي ، وعضو ايطالي وعضوان ليبيان فقط . ونصب « بنك باركليز » البريطاني وكيلا للجنة في ليبيا ولندن من أجل اصدار النقد وامساك الحسابات ، واتخاذ القرارات الخاصة بالاستثمار وحسابات الحكومة . وكان من شأن هذا كله أن أعطى « بنك باركليز » بعض وظائف المصرف المركزي نيابة عن الحكومة ولجنة النقد[1] . وبذلك كان النقد الجديد شكلاً من أشكال الاستعمار الجديد بعد أن جرى اعلان استقلال البلاد .

---

(١) عبد المنعم البيه : المرجع السابق .

وقامت مصارف مصرية واردنية ، في السنوات التاليـــة للاستقلال ، بافتتاح فروع مصرفيـة لها في القطر الليبي . وبذلك توسع الائتمان المصرفي ، وخاصة لصالح الليبين والعرب .

وازدادت مطالبة الوطنين بعد الاستقلال بتحرير النقد الليبي من الاشراف الاجنبي ، واقامة مصرف مركزي وطني . وأدت جهود الوطنيين عام ١٩٥٥ الى صدور قانون بانشاء « البنك الوطني الليبي » ، حيث بدأ نشاطه الفعلي عام ١٩٥٦ . وصفيت « لجنة النقد الليبية » . وكان بذلك أول مصرف ليبي وطني يؤسس في البلاد . وقامت الحكومة الليبية بتغطية مجموع رأسمال هذا المصرف فكان أول مصرف حكومي في البلاد ايضاً .

وقد حدد القانون أهداف البنك الوطني الليبي . ولكن هذه الاهداف لم تكن تعادل اهـــداف المصارف المركزية المعروفة ، وبذلك كان مصرفاً للحكومـة ومنظماً للاصدار ومؤثراً على الائتمان ومرشداً للاستقرار النقـدي . وكان محاطاً بفروع لمصارف أجنبية لم تتعامل معه وحاربته . ولكن المصرف الليبي هادنها واتبع معها سياسة النفس الطويل .

وكان القانون يجيز له ممارسة الأعمال المصرفية التجارية العادية واقراض الافراد والشركات اضافة للاصدار النقدي ، فقام باحداث قسمين : احدهمـــا للاصدار النقدي والثاني للائتمان المصرفي . وافتتح له عدداً من الفروع لتقديم التسهيلات الائتمانية للمواطنين بمختلف انواع النشاط الاقتصادي ، وبذلك كان أول مصرف تجاري ليبي ايضاً .

وفي عام ١٩٥٨ صدر قانون المصارف فحدد المتطلبات التي تتعلق برأسمال

المصارف التجارية واحتياجاتها ونسبة السيولة والاعمال المصرفية وسياسة الائتمان وغير ذلك من النواحي المصرفية . ولكن هذا القانون لم يدعم موقف « البنك الوطني الليبي » فلم يتمكن من توجيه فروع المصارف الاجنبية وفق السياسة المصرفية المناسبة للاوضاع الاقتصادية الليبية .

ولكن « البنك الوطني الليبي » نادى بتلييب المصارف . ورفض افتتاح فروع جديدة للمصارف الاجنبية بحجج متعددة الا بعد مشاركة الليبيين فيها بما لايقل عن ٥١٪ من رأسمالها .

ومع توسع استخراج البترول والودائع البترولية والنشاط الاقتصادي افتتحت الفروع الجديدة بهذا الشرط ، وتنبه رجال الاعمال الليبيون والصحافة والرأي العام الى أهمية المصارف وما تحققه من أرباح ومزايا ، والى أهمية تثبيت السيطرة الوطنية على الفروع المصرفية الاجنبية . وجاء التطور السريع في تصدير البترول وفي تزايد عائداته مدعماً لهذا الاتجاه ومعززاً له .



وقد مكن هذا من الغاء قانوني ١٩٥٥ و ١٩٥٨ ووضع قانون جديد عام ١٩٦٣ ، حل فيه « مصرف ليبيا » محل البنك الوطني الليبي واعطي صلاحيات واسعة وقوى جديدة تمكنه من اخضاع الفروع المصرفية الاجنبية لسلطاته وسيادته . وابتدأ مصرف ليبيا بقوته الجديدة معركة تلييب الجهاز المصرفي في البلاد ، عن طريق الاقناع الادبي وبالاسلوب الطوعي .

وفي عام ١٩٦٣ كان الجهاز المصرفي الليبي يتألف من تسعة فروع لمصارف أجنبية و « مصرف ليبيا » ، وكان بين الطرفين معركة كاملة وقام « مصرف ليبيا » بحث رجال الاعمال على دخول الاعمال المصرفية ودعمهم

بعدم اعطائه أي ترخيص بافتتاح فروع مصرفية بدون مشاركة الليبيين فيها بنسبة لاتقل عن ٥١٪ .

وفي السنوات التالية ١٩٦٤ - ١٩٦٧ اعيد تنظيم عدد من المصارف السابقة وانشيء « المصرف التجاري » و « مصرف الصحارى » و « مصرف الشركة الافريقية » و « مصرف شمال افريقيا » و « مصرف النهضة العربية » . واذا كان الليبيون قد شاركوا في ملكية هذه المصارف فانهم لم يشاركوا في ادارتها واحتفظت هذه المصارف بخبراتها الفنية السابقة . ولكن المصارف الاجنبية الرئيسية العاملة في البلاد بقيت مستعصية على التليبب وهي : روما ، باركليز ، نابولي ، والعربي .

وجاء فاتح ايلول ١٩٦٩ ليغير السلطة السياسية في البلاد ، وليقيم حكماً جديداً يهدف الى الوحدة والتقدم الاجتماعي . واعتمد الحكم الجديد مبدأ تليبب المصارف ، فقرر مجلس قيادة الثورة الليبية في نفس العام تطبيق التليبب الالزامي على المصارف ليشمل هذه المصارف الاربعة بالخاصة ، وليوجب تأسيس المصارف كشركات مساهمة تملك الحكومة الليبية ٥١٪ على الأقل من اسهمها بصورة دائمة ، يتمتع الليبيون باغلبية اعضاء مجالس ادارتها وبرئاسة هذه المجالس . واطلق على هذه المصارف الاربعة الاسماء التاليـــة على التوالي : « الأمة » ، « الجمهورية » ، « الاستقلال » ، « العروبة » .

وبعد عام واحد ، أي في نهاية عام ١٩٧٠ تم تأميم الحصص الاجنبية في المصارف الاجنبية ، وبذلك اصبح النظام المصرفي الليبي ملكاً مشتركاً لليبيين حكومة وأفراداً .

## ثانياً ـ تأميم الملكية الاجنبية في المصارف في اطار الاصلاحات الاقتصادية للثورة الليبية :

لايمكن فهم عملية تأميم الحصص الاجنبية في المصارف الليبية الا من خلال فهم مبادىء الثورة الليبية واجراءاتها الاقتصادية خلال السنة الاولى من حياتها .

ففي أول ايلول سبتمبر ١٩٧٠ قام مجموعة من الضباط الليبيين باستلام السلطة في القطر الليبي والغاء ملكية عائلة السنوسي في البلاد ووجدوا لذلك دعماً فورياً من جماهير الشعب الليبي ومن الاقطار العربية التقدمية .

وبعد عشرة أيام من ذلك التاريخ اصدر مجلس قيادة الثورة في ١١ ايلول ١٩٦٩ اعلاناً دستورياً أرسى عدداً من الأسس والمبادىء في السياسة الاقتصادية للدولة . منها :

– وجوب عمل الدولة على تحرير الاقتصاد القومي من التبعية والنفوذ الاجنبي وتحويله الى اقتصاد وطني انتاجي يعتمد على الملكية العامة للشعب الليبي والملكية الخاصة لافراده .

– الملكية العامة للشعب أساس تطوير المجتمع وتنميته وتحقيق كفاية الانتاج .

– الملكية الخاصة غير المستغلة مصونة ولا تنزع الا وفقاً للقانون .

– يراعى في توجيه الاقتصاد الوطني التعاون بين القطاعين العام والخاص لتحقيق أهداف التنمية الاقتصادية .

ان تحقيق اهداف التنمية الاقتصادية والتطوير للاقتصاد الليبي تستوجب وضوح الرؤية فيما يختص باتجاهات التنمية ودور القطاع العام والخاص فيها. وجاء « الاعلان الدستوري المذكور بعد استلام السلطة مباشرة ليوضح هذه الرؤية : تحرير الاقتصاد القومي ، تحويل الاقتصاد الوطني الى اقتصاد انتاجي ، اعتماد الاقتصاد الليبي على القطاعين العام والخاص ، اولوية القطاع العام في التنمية الاقتصادية . صيانة الملكية الخاصة غير المستغلة ، التعاون بين القطاع العام والقطاع الخاص .

وقد عمل الحكم الجديد على حل عدد من المسائل السياسية والاقتصادية المطروحة أمام البلاد ، وتبنى مهام الحركة الوطنية التقدمية ، ووسع صلاته مع الاقطار العربية المتحررة .

لقد عمد الحكم الجديد ، بادىء ذي بدء الى المطالبة بانسحاب القوات الاجنبية من البلاد . ودخل بمفاوضات مع السلطات الاجنبية ادت الى تصفية القواعد الاجنبية في البلاد . وبذلك دعم الاستقلال السياسي ، الذي تتمتع به البلاد منذ عام ١٩٥١ .

ومع تدعيم الاستقلال السياسي للبلاد اتخذت الثورة خلال العام الذي انقضى على وجودها عدداً من الاجراءات الاقتصادية لتحقيق الاستقلال الاقتصادي في البلاد ، والذي كان خاضعاً الى تأثيرات اجنبية واسعة . وكان الهدف من هذه الاجراءات الاقتصادية تحقيق ماجاء في « الاعلان الدستوري » في تحرير الاقتصاد الليبي من السيطرة الاجنبية وتحويله الى اقتصاد انتاجي ووضعه في ايدي الليبيين حكومة وافراداً .

وكان من أولى الاجراءات المتخذة اعتماد مبدأ تلييب المصارف في الأشهر الأولى للثورة . فقرر مجلس قيادة الثورة الليبية في تشرين الثاني ١٩٦٩ تطبيق التلييب الالزامي على جميع المصارف العاملة في البلاد بنسبة ٥١٪

وفي نيسان ١٩٧٠ انهى مجلس التخطيط القومي اجتماعاته الخاصة بدراسة ومناقشة مشروعات التنمية للعام المالي ١٩٧٠ – ١٩٧١ . وأصدر مجلس الوزراء قراره باعتماد هذه الخطة في تنفيذ المشروعات، والتي وضعت وفق السياسة الاقتصادية التي جاءت في الاعلان الدستوري . وتبعاً لذلك جرى تصنيف المشروعات الصناعية في ثلاث زمر :

المشروعات الكبيرة : وهي المشروعات التي تقوم على تصنيع الموارد الطبيعية الهامة مثل المواد الخام والغاز الطبيعي والمواد البترولية ، وجعلت هذه المشروعات من مسؤولية القطاع العام أساساً .

المشروعات المتوسطة : وتقوم على تصنيع السلع المختلفة لسد حاجة السوق المحلي على مستوى الجمهورية ويسهم القطاع العام بدور فعال في تنفيذ هذه المشروعات عن طريق الدراسة والمشاركة بالتمويل ، وتنفيذ بعض المشروعات عند الاحتياج .

المشروعات الصغيرة : والغرض منها سد حاجة السوق من السلع الاستهلاكية في منطقة محدودة ، وقد تركت هذه المشروعات للقطاع الخاص .

وتبعاً لذلك سيتحمل القطاع العام عبء التنمية ويحدد اتجاهها الأساسي . ويقوم بالتنمية كل من القطاع العام والمشترك والخاص . وحددت الخطة ان يقوم القطاع المشترك على أساس اشتراك الدولة بأعمال المشروعات بما يتناسب

وأهميتها بالنسبة للاقتصاد الوطني ، وبما لايقل عن ٥١٪ كما سمحت الخطة بمشاركة رؤوس الأموال الأجنبية في المشروعات الصناعية بنسب معينة تحددها الصعوبات الفنية للمشروع .

ومن أجل تنفيذ مشروعات القطاع العام والقطاع المشترك جرى تحضير مشروع بإقامة « مؤسسة اقتصادية » حسب النموذج الايطالي الذي عرفته مصر وسورية ، تتمتع بالشخصية الاعتبارية والاستقلال المالي وتعمل وفق قانون التجارة والمحاسبة التجارية .

وفي شهر مايس ١٩٧٠ أصدرت الحكومة الليبية قانوناً يتضمن على ان تكون نسبة ٥١٪ من أسهم الشركات التجارية المساهمة ملكاً لأهالي البلاد وان يكون رئيس مجلس الادارة وغالبية أعضاء المجلس من الليبيين . وقضى القانون بالحد من تغلغل بعض العناصر الرأسمالية الأجنبية في الشركات المساهمة كما قصر تأسيس شركات التضامن بالتوصية البسيطة على الليبين وحصر مجلس الوزراء الليبين تجارة الجملة والاستيراد والتصدير بالشركات التي يملك الليبيون رأسمالها الكامل . وبذلك وضعت الأسس لتلييب الاقتصاد الوطني الليبي .

وفي شهر تموز ١٩٧٠ قرر مجلس قيادة الثورة استرداد أملاك جميع الايطاليين في ليبيا أيا كان نوعها وإعادتها كلها الى الشعب الليبي . وأعلن الرئيس القذافي ان جميع عقارات الايطاليين البالغ عددهم ١٢ ألفاً و ٨٠٠ شخص بما عليها من منشآت وآلالات ثابتة ومنقولة ووسائل نقل وحيوانات وحلقات أخرى تعود الى الدولة تنفيذاً لقرار استعادة الممتلكات التي في حوزتهم . وبذلك تم تأميم أملاك الايطاليين الذين استعمروا البلاد فترة طويلة من الزمن ، وكان ذلك خطوة كبرى في مجال تحرير الاقتصاد الليبي .

وأصدر مجلس الثورة قراراً بعدم منح أو تجديد التراخيص للايطاليين في ليبيا بزاولة التجارة والصناعة أو المهن الأخرى إلا بأذن من مجلس الوزراء، وذلك رغبة في إقامة اكبر قدر من فرص العمل لأبناء البلاد أولاً .

وفي نفس الشهر أصدر مجلس قيادة الثورة الليبي قانوناً بأن تضع الحكومة يدها على ممتلكات وأموال اليهود في ليبيا وعددهم ٦٢٠ شخصاً على أن يتم تعويضهم عنها بمستندات اسمية على الدولة تستهلك في ١٥ سنة . وكان معظم هؤلاء قد غادروا البلاد بعد ثورة أيلول ١٩٦٩ .

وفي نفس الشهر أقر مجلس قيادة الثورة قانوناً يقضي بتـــأميم الشركات والمنشآت التي تقوم بعمليات استيراد وبيع وتوزيع المنتجات النفطية ، وقصر هذه العمليات على المؤسسة الليبية الوطنية للنفط . وشمل هذا القرار شركات أربع هي: شل وبترو ليبيا واسو ليبيا وانسيل. وأوضحت المذكرة التفسيرية بأن الهدف من هذا القانون هو الحد من سيطرة الشركات والمنشآت الأجنبية على هذا الجانب الهام من جوانب النشاط الاقتصادي .

ودخلت ليبيا في النصف الثاني من العام الماضي معركة النفط عندمـــا طالبت برفع أسعار النفط الليبي . وقد أحجمت الشركات الأجنبية عن ذلك . فعمدت الحكومة الى تخفيض إنتاج الشركات وأقرت زيادة الأسعار بحدود ٣٠٪ عما كانت عليه في السابق . وبذلك ارتفعت عائدات الحكومة الليبية من النفط ، وأعيد تنظيم المؤسسة الليبية الوطنية للنفط لتستطيع القيام بدورها الجديد في الاستكشاف والانتاج والتسويق والتوزيع والتكرير والبترو كيميائيات.

ان مجموع الاجراءات الاقتصادية والاجتماعية للثورة الليبية يوضح ان

المرحلة التي تمر بها البلاد منذ قيام ثورة ايلول ١٩٦٩ تركز الاهتمام على مايلي :

١ – تحرير الاقتصاد الليبي من السيطرة الاجنبية المتمثلة برؤوس الأموال الايطاليـة والانكليزية والفرنسية والصهيونية والألمانية الغربية والأميركية ، ونقل ملكيات الأجانب الى ملكية وطنية .

٢ – تنمية الاقتصاد الليبي بقوة القطاع العام الناجمة عن اتساع حجم العائدات البترولية ومالية الدولة .

٣ – مشاركة القطاع العام والقطاع الخاص في التنمية على حساب رأس المال الأجنبي من خلال التعاون في إقامة المشروعات المشتركة .

٤ – وضع تنظيمات قانونية جـديدة تستوعب التحولات الاقتصادية والاجتماعية الجارية في البلاد .

وفي اطار هذه المرحلة الجديدة صدر قانون تأميم الحصص الأجنبية في المصارف الليبية .



## ثالثاً – متابعة تطوير النظام المصرفي الليبي :

ان صدور قانون تأميم الحصص الأجنبية من المصارف الليبيـة له آثار اقتصادية واجتماعية متعددة منها :

١ – ان تأميم جزء من القطاع المصرفي وضع رأس المال الأجنبي في قطاع المصارف في يد الدولة . وهذا يعني توسيعاً للقطاع العام بصورة عامة والقطاع المصارف بصورةخاصة . ويتبدى التأثير المباشر لهذا الاجراء في أن ملكية

الجهاز المصرفي الليبي أصبحت ليبيه بالكامل في يد الحكومة من ناحية والليبيين من ناحية أخرى .

٢ — ان تحول رؤوس الأموال الاجنبية في القطاع المصرفي الى رؤوس أموال وطنيـة يعني ان المصارف الليبية أصبحت تعتمد على رأس مال موجود داخل البلاد ، وسيظل موجوداً فيها . وهذا يزيد بالطبع في طمأنينة المودعين وثقتهم بالنظام المصرفي الليبي .

٣ ان ارباح المصارف الليبية هي ارباح عالية بسبب ارتفـاع اسعار الفائدة من ناحية واتساع حجم الاعمال من ناحية اخرى . وتقع الارباح بحدود ٢٥٪ من رأس المال . وتحويل ملكية المصارف الاجنبية الى ملكية ليبية يعني أن ارباح هذه المصارف ان تحول الى الخارج بعد اليوم بل اصبحت ملكاللشعب الليبي ممثلا بحكومته واصحاب الاعمال فيه .

٤ — ان تحويل الجهاز المصرفي الى ملكية ليبية ، حكومية وفردية ، يحرر المصارف من تبعيتها لفروعها الرئيسية في الخارج بحيث ترسم السيـــاسة المصرفية على ضوء الصالح الليبي وليس على ضوء الصالح الاجنبي . ويمكن تعديل هذه السياسة بحيث لاتهدف الى الربح فقط ، بل والى اجراء تنمية سريعـــة في البلاد .

٥ — ان تحويل ملكية الجهاز المصرفي من الاجانب الى ملكية وطنية سيؤدي حتما الى تغيير في الخبرات المصرفية او ستنتقل هذه من ايدي الاجانب الى ايدي الوطنيين . وقد أمكن تشكيل بعض الخبرات الليبية المصرفية خلال الفترة السابقة ، يضاف اليه مايمكن للجامعة الليبية تخريجه من عناصر مثقفة شابة وبذلك يطور قانون التأميم الكوادر المصرفية الوطنية في البلاد .

أما من الناحية المصرفية فان آثار تأميم القسم الاجنبي من الجهاز المصرفي يمكن ان تكون له آثار في مجال التنظيم المصرفي وفي مجال سيولة النظام المصرفي وفي مجال نشاط المصارف وحوافزه ، وفي مجال ضمان الائتمان ومخاطره .

ففي مجال التنظيم المصرفي اصبح النظام المصرفي يقوم على :

١ – « مصرف ليبيا » ، وهو مملوك بكامله للدولة وله فرعان يعمل احدهما كمصرف مركزي ويعمل ثانيهما كمصرف تجاري .

٢ – المصارف الاجنبية الاساسية الاربعة التي تم تلييبها بصورة الزامية في اواخر عام ١٩٦٩ وأصبحت الحكومة الليبية تملك ٥١٪ من رأسمالها . وهي مصارف « الأمة » و « الجمهورية » و « الاستقلال » و « العروبة » ويعمل كل منها بصورة مستقلة عن الآخر . ومع تطبيق قانون ١٩٧٠ اصبحت هذه المصارف مملوكة كلياً للحكومة الليبية .

٣ – المصارف الخمسة التي تم تلييبها بصورة اختيارية واصبح الليبيون يملكون ٥١٪ من رأسمالها منذ اعادة تنظيمها ، وأصبحت الحكومة تملك الباقي بموجب قانون التأميم لعام ١٩٧٠ وقد جرى توحيد هذه المصارف الخمسة في مصرف واحد باسم « مصرف الوحدة » وهذا المصرف ملك مشترك بنسبة ٥١٪ للقطاع الخاص و ٤٩٪ للقطاع العام .

ويلاحظ ان هذا الشكل من التنظيم المصرفي يستوجب ادخال تعديلات حول العلاقة بين المصارف الحكومية الأربعة ، والفرع التجاري لمصرف ليبيا بما يسمح بايجاد تخصص مصرفي يسمح بتسليف زراعي وصناعي وعقاري وشعبي متخصص .

ان سيولة المصرف هي قدرته على مقابلة طلبات المودعين في أي وقت من النقد السائل . ويبدو أن دخول المصارف الليبية دائرة القطاع العام سوف يقوي مراكز سيولتها ، ويرجع ذلك في رأينا لعدد من العوامل أهمها :

١ ـ ازدياد ثقة المودعين بالمصارف ، لأن المصارف الحكومية مضمونة من قبل الدولة ، وهذا يقدم ضمانا اكبر لأموال المودعين .

٢ ـ ان المصارف في نطاق القطاع العام لاتتنافس فيما بينها ، بل تتعاون تحت اشراف الدولة وتعمل على أساس مبادىء التخصص وتوزيع العمل .

٣ ـ ان وجود قطاع عام في الاقتصاد الوطني يقوي أسس التعاون بين قطاع الصناعة وقطاع المصارف ، حيث تمثل حسابات القطاع العام والحكومة الجزء الاكبر من ودائع الجهاز المصرفي .

٤ ـ ان ملكية الدولة في عدد من المصارف التجارية ، اضافة لملكيتها لمصرف ليبيا يجعل في الامكان التنسيق بين أعمال مصرف ليبيا ، والمصارف الاخرى ، بحيث تعمل متعاونة وفقاً لسياسة موحدة .

ان كل هذا يوضح ضرورة اعادة النظر بنظام المصارف ككل والاستفادة من سيولاتها في تمويل التنمية الاقتصادية بصورة أفضل .

ويقصد بحوافز النشاط المصرفي في المصارف الخاصة تحقيق أقصى حد من الربح . ومن الطبيعي ان تغيير ملكية اجزاء من الجهاز المصرفي سيغير من هذه الحوافز ، حيث ان تشغيل قطاعات من الجهاز المصرفي على اساس المشروع العام سيؤدي الى عدد من النتائج يمكن ان نذكر منها :

١ ـ ان دافع الحصول على أقصى الارباح لايمكن أن يبقى الدافع الوحيد

لاستخدامات موارد المصارف ، بل ستصبح المصلحة الاقتصادية العامة الموجـه الاساسي لاستثمارات المصارف .

٢ - ان دخول الدولة في النطاق المصرفي سيؤدي الى اقامة وحدات مصرفية كبرى ، متخصصة . بحيث نتوقع ان يزداد التمويل المصرفي والعقاري والزراعي ،وبذلك يساهم النظام المصرفي الليبيفي تحقيق تنمية متوازنة وسريعةفي القطر الليبي .

٣ - ان تأميم قسم من القطاع المصرفي الليبي يجعل في الامكان القيام بتخطيط مصرفي ، وبذلك تساهم المصارف بصورة واعية في تعبئـة المدخرات وتوجيهها للاستخدام المنتج داخل البلاد عوضاً عن ارسالها خارج البلاد ، او قصر استخدامها على تمويل التجارة الخارجية .

٤ - ومن الطبيعي ان يمكن القطاع المصرفي من توثيق الارتباط بين المصرف المركزي «مصرف ليبيا» والمصارف الأخرى من ناحيةوبين الجهـاز المصرفي ككل والاجهزة المالية الحكومية من جهة ثانية . وبذلك تصبح مهمة مصرف ليبيا اكثر سهولة في مراقبة الائتمان ، كما يزداد الترابط بين السياسةالمالية والسياسة النقدية .

ويقصد بضمان الائتمان ومخاطره حرص المصارف في ظل المشروعالخاص على التأكد من وجود ضمان كاف للقرض . وتبعاً لذلك تجري دراسة المركز المالي المستقرض ، وفق « معايير مالية » معينة ، ويقرر منح القرض وفقاً لنتائج هذه الدراسة ، وبعد تقديم الضمانات المالية اللازمة ، والأمر الاساسي في هذه المعايير هو امكانية المستقرض على تسديد القرض .

لقد ازدادت العائدات البترولية بصورة قفزية في مجرى النمو الاقتصادي

القطر الليبي ، ومع أن قسماً كبيراً من هذه العائدات جرى صرفه على الاستهلاك التبذيري ، فقد خصصت أموال واسعة من خلال الخطتين الخمسيتين الاولى والثانية ١٩٦٣ – ١٩٦٨ و ١٩٦٩ – ١٩٧٤ لتمويل التنمية الاقتصادية والاجتماعية في البلاد . فقد تضمنت الخطة الاولى انفاق ٤٨٧،٦ مليون جنيه كما تضمنت الخطة الخمسية الثانية انفاق ١١٤٩،٥ مليون جنيه على مشروعات القطاع العام في مختلف القطاعات الاقتصادية(١) . وكان بين المشروعات المنفذة مجمعات صناعية ومؤسسة التنمية الصناعية ومعمل تصنيع الفاكهة الحكومي في طرابلس ، ومعمل تعبئة التمور في « هون » ، والمدبغة النموذجية في طرابلس ، ومصنعان لتعليب السمك ومساهمة الدولة في شركة الاسمنت الوطنية . ويضم القطاع العام مشروعات اخرى مثل مصنع الطباق واحتكار الملح والمطابع الحكومية . وتشتمل الخطة الثانية على اقامة عدد جيد من المشروعات الصناعية . وكل هذا أوجد قطاعاً عاماً في الصناعة الوطنية قابلاً للتوسع من خلال خطط التنمية .

ومن الطبيعي أن وجود قطاع عام لايتلاءم ونظام « المعايير المالية » و « الضمانات المالية » الذي تأخذ به المصارف الخاصة . ان مشروعات القطاع العام مضمونة من قبل الدولة بدون شك . وهذا يعني ان دراسة المركز المالي لايمكن اعتبارها اساساً كافياً لمنح القرض ، كما ان نظام « الضمانات المالية » يسقط من الاعتبار ويصبح لغواً . وهذا يطرح مسألة اعادة النظر بقواعد التمويل المصرفي وتخطيطه .

---

(١) راجع الارقام في « المؤشرات الاقتصادية للاقتصاد الليبي » ، الاقتصاد ، العدد ٤٩ / ١٩٦٩ .

# مشكلات التجارة الخارجيّة

# في سوريّة

بوعلي ياسين



للتجارة الخارجية في البلدان المتخلفة ( أو «النامية» ) ، ومنها سورية ، وجهان : الأول ايجابي ، يتمثل في مساعدة النمو الاقتصادي ، لتطوير وسائل الانتاج وزيادة الدخل الوطني والاستخدام (التشغيل) لدى استيراد البضائع الانتاجية (الرأسمالية) غير المتوفرة لدينا ، وتصدير الفائض من الانتاج عن حاجات البلد ؛ الى جانب السبب الطبيعي الرئيسي للتبادل التجاري الذي نراه في اختلاف الامكانيات والمهارات الانتاجية بين مجتمع وآخر . والثاني سلبي ، ذلك لأن تقسيم العمل السائد حالياً في المجتمع البشري إلى بلدان زراعية وبلدان صناعية ، بفعل قانون التطور اللامتساوي[١]

---

(١) Sieh Ernest Mandel: Marxistische Wirtschaftstheorie, Frankfurt a. M. 1968, S. 98 f

أيضاً ارنست مانديل : الرد الاشتراكي على التحدي الاميركي ، دار دمشق ، دمشق ١٩٧٠ ، ص ٥ وما يتبعها .

وبسبب الاحتكاك بين الانتاج الرأسمالي والانتاج التقليدي في القرن التاسع عشر ، والاستعمار الذي نتج من هذا الاحتكاك وعن طبيعة الانتاج الرأسمالي ، يعمل اقتصاد البلدان الزراعية موجهاً حسب حاجات اقتصاد البلدان الامبريالية فيصدر المواد الأولية التي تلزم صناعتها ... ، وتكون هذه البنية الاقتصادية متعلقة بالصناعة الرأسمالية لدرجة يصعب فيها على المجتمع خلق اقتصاد وطني لسد حاجاته ، كما يجب أن يكون «الاقتصاد» وكما يقصد بهذا المفهوم .

تحاول سورية في الوقت الحاضر التخلص من هذه التبعية ، ومن هذا المنظار سنحاول هنا دراسة تطور تجارتها الخارجيـــة في الفترة مابين ١٩٦٣ - ١٩٧٠ ( وحسب الاحصائيات المتوفرة ) ، فالتجارة الخارجية بالنسبة لسورية هي أم المؤشرات العاكسة لاستقلالية أو تبعية اقتصادنا . أما المؤشرات الاخرى مثـــل تبادل الخدمات ( ومنها السياحة ) ، حركة رؤوس الأموال ( المستقلة التي لاتعكس حركة مقابلة للسلع والخدمات ) والمدفوعات التحويلية فسوف نهمل هنا ، مع التنبه الى اهميتها .

## اتجاه أرقام التجارة الخارجية



نلاحظ من الجدول رقم ١ ظاهرتين في تجارة سورية الخارجية : أولا ازدياد القيمة الاجمالية ، وثانياً تأرجح هذه القيمة حول خط تصاعدها . وقد كانت الزيادة عام ١٩٧٠ تعادل ثلث القيمة الاجمالية لتجارة عام ١٩٦٣ . وتبدو لنا أهمية هذا اكثر وضوحاً اذا علمنا أن حجم التبادل التجاري خلال الفترة ما بين ١٩٦٣ - ١٩٦٥ كان يساوي من ٤٣ - ٥٢٪ من الدخل الوطني(١) ، وأن التصدير كان يعادل ١٤٪ والاستيراد ٢٥٪ من الدخل الوطني ( لعام ١٩٦٨ ) .

---

(١) حسب حسابنا الخاص أصبح عام ١٩٦٧ - ١٩٦٩ حوالي ٣٥ - ٣٨٪ ، الا أنه هناك شك بأرقام الدخل الوطني والأرقام القياسية للأسعار المعتمدة لتحويل الدخل بالأسعار الثابتة الى الدخل بالاسعار الجارية .

## جدول رقم ١

## تجارة سورية الخارجية وأرقامها القياسية

## ( بملايين الليرات السورية ؛ ١٩٦٣ = ١٠٠ )

| السنة | الصادرات | | المستوردات | | المجموع | |
|---|---|---|---|---|---|---|
| | القيمة | الرقم القياسي ٪ | القيمة | الرقم القياسي ٪ | القيمة | الرقم القياسي ٪ |
| ١٩٦٣ | ٧٢٠٫٩ | ١٠٠ | ٨٩٧٫٥ | ١٠٠ | ١٦١٨٫٤ | ١٠٠ |
| ١٩٦٤ | ٦٧٢٫٦ | ٩٣٫٣ | ٨٩٨٫٤ | ١٠٠٫١ | ١٥٧١٫٠ | ٩٧٫١ |
| ١٩٦٥ | ٦٤٣٫٧ | ٨٩٫٣ | ٨١٢٫٣ | ٩٠٫٥ | ١٤٥٥٫٩ | ٩٠٫٠ |
| ١٩٦٦ | ٦٦١٫٤ | ٩١٫٧ | ١١٠٣٫٤ | ١٢٢٫٩ | ١٧٦٤٫٨ | ١٠٩٫٠ |
| ١٩٦٧ | ٥٩١٫٣ | ٨٢٫٠ | ١٠٠٩٫١ | ١١٢٫٤ | ١٦٠٠٫٤ | ٩٨٫٩ |
| ١٩٦٨ | ٦٧٣٫٠ | ٩٣٫٣ | ١١٩٢٫٦ | ١٣٢٫٩ | ١٨٦٥٫٦ | ١١٥٫٣ |
| ١٩٦٩ | ٧٨٩٫٩ | ١٠٩٫٦ | ١٤١١٫٣ | ١٥٧٫٢ | ٢٢٠١٫٣ | ١٣٦٫٠ |
| ١٩٧٠ | ٧٧٥٫٣ | ١٠٧٫٥ | ١٣٧٤٫٣ | ١٥٣٫١ | ٢١٤٩٫٤ | ١٣٢٫٨ |

المصدر : المكتب المركزي للاحصاء

زيادة القيمة الاجمالية للتجارة الخارجية تعود بالدرجة الأولى الى زيادة المستوردات منذ عام ١٩٦٦ ، كما نرى في الجدول رقم ١ . فقد ارتفعت هذه بما يعادل اكثر من نصف قيمتها عام ١٩٦٣ ، بينما لم تزد الصادرات اكثر من ٧٫٥٪ عام ١٩٧٠ بالنسبة لعام ١٩٦٣ . وفي السنوات من ١٩٦٤ الى ١٩٦٨ لم تساو الصادرات اكثر من ٨٢ — ٩٣٪ مما كانت عليه عام ١٩٦٣ . هناك اذن تباين بين الصادرات والاستيرادات يزداد اتساعاً . فالصادرات لاتغطي سوى نسبة ضئيلة من استيرادنا تراوحت بين ٥٦ — ٧٩٪ خلال الفترة الموضوعة للبحث ، كما نرى ذلك في الجدول رقم ٢ . ومن هذا الجدول أيضاً نلاحظ أن نسبة التغطية هي بصورة عامة في تناقص ، فبينما كانت في السنوات الثلاث الاولى تتراوح بين ٧٥ — ٨٠٪ ، اصبحت في السنوات الثلاث الاخيرة تساوي بالتقريب فقط ٥٦٪ .

## جدول رقم ٢

### نسبة تغطية صادرات سورية لمستورداتها وقيمة العجز التجاري

( بملايين الليرات السورية ؛ ١٩٦٣ = ١٠٠ )

| السنة | التصدير | الاستيراد | نسبة التغطية % | العجز التجاري | |
|---|---|---|---|---|---|
| | | | | القيمة | الرقم القياسي % |
| ١٩٦٣ | ٧٢٠،٩ | ٨٩٧،٥ | ٨٠،٣ | ١٧٦،٦ | ١٠٠ |
| ١٩٦٤ | ٦٧٢،٦ | ٨٩٨،٤ | ٧٤،٩ | ٢٢٥،٨ | ١٢٧،٩ |
| ١٩٦٥ | ٦٤٣،٧ | ٨١٢،٢ | ٧٩،٣ | ١٦٨،٥ | ٩٥،٤ |
| ١٩٦٦ | ٦٦١،٤ | ١١٠٣،٤ | ٥٩،٩ | ٤٤٢،٠ | ٢٥٠،٣ |
| ١٩٦٧ | ٥٩١،٣ | ١٠٠٩،١ | ٥٨،٦ | ٤١٧،٨ | ٢٣٦،٦ |
| ١٩٦٨ | ٦٧٣،٠ | ١١٩٢،٦ | ٥٦،٤ | ٥١٩،٦ | ٢٩٤،٣ |
| ١٩٦٩ | ٧٨٩،٩ | ١٤١١،٣ | ٥٦،٠ | ٦٢١،٤ | ٣٥١،٩ |
| ١٩٧٠ | ٧٧٥،٣ | ١٣٧٤،١ | ٥٦،٤ | ٥٩٨،٨ | ٣٣٩،١ |

المصدر : المكتب المركزي للاحصاء



هناك من ينظر إلى هذه البيانات بإهتمام أقل ، معتبراً ذلك بأن ميزان المدفوعات هو الأهم ، وطالما بقي هذا فائضاً ( أي رابحاً ) فانه يمكن تبني عجز ( أي خسارة ) الميزان التجاري . وفي الواقع كان ميزان المدفوعات السوري رابحاً من عام ١٩٦٤ إلى عام ١٩٦٧ ، بينما كان خاسراً في الأعوام ٦٣ ، ٦٨ و ١٩٦٩ ، وذلك على الشكل التالي ( – تعني عجزاً ، + تعني فائضاً ) وبملايين الليرات السورية (١) :

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٩٦٣ | – ٨٧،٥ | ١٩٦٦ | + ٣٧،١ |
| ١٩٦٤ | + ٣١،١ | ١٩٦٧ | + ٩٨،٥ |
| ١٩٦٥ | + ٢٥،٧ | ١٩٦٨ | – ٦،٠ |
| ١٩٦٩ | – ١٢٣،١ | | |

(١) حسب حسابات جورج حورانية والتي يمكن اعتبارها تصحيحاً لبيانات مصرف سورية المركزي . انظر :

Le Controle des Changes en Syrie , Thèse , Paris 1970

هذا يعني عملياً – على الأقل منذ عام ١٩٦٨ – تقليلاً من قيمه النظرية المذكورة آنفاً . أما من الناحية النظرية فليس الميزان التجاري سوى جزء من ميزان المدفوعات ( ميزان المدفوعات مبدئياً = الميزان التجاري + ميزان تبادل الخدمات + ميزان المدفوعات التحويلية + حركة رؤوس الأموال ) .

فعجز الميزان التجاري إذاً أن يعوض بفائض في الخدمات و / أو في المدفوعات التحويلية و / أو في حركة رؤوس الأموال . وبالنسبة للحالة الأولى ، أهم مورد في هذا المجال يأتينا من نفقات وعوائد شركات البترول التي بلغت عام ٦٩ ٢٧٢،٠ مليون ل.س ، وهو مبلغ ضئيل إذا ماقورن بقيمة مستورداتنا في نفس العام والبالغة ١٤١١،٣ مليون ل س ، أي أقل من ١٩،٣٪ . ومن غير المرغوب أن يهيمن ميزان الخدمات على ميزان مدفوعاتنا ، خاصة إذا كان لهذا الميزان تلك الأهمية في الاقتصاد ، كما هو الأمر في سورية . فالاقتصاد الذي يعيش من تكرم السياح مثلاً والذي تكون أكثر قوته العاملة مشغولة في قطاع الخدمات هو اقتصاد لايقوم على قاعدة متينة ، ولا يمكن له أن يستقل يوماً . وبالنسبة للمدفوعات التحويلية ، فهي مورد لايمكن الاعتماد عليه ، وهو ليس انجازاً لاقتصادنا – وهذا مهم . وأكثر المدفوعات تأتينا من سوريين يعملون في لبنان وبلدان الخليج ، وكان من الأفضل لو أن اقتصادنا هو المستفيد من قوة عملهم . تبقى حركة رؤوس الأموال ، وتلك مدعاة إلى سوء الفهم . فهي من ناحية تعكس حركة البضائع والخدمات ، ومن ناحية أخرى تكون مستقلة عنها ، أي يجب تقسيم رؤوس الأموال الداخلة والخارجة إلى قسمين . والمهم هنا هو الجزء الذي يتحرك لوحده دون دفع من تيار السلع والخدمات . ولا يمكن تبقي الكميات الداخلة من هذا الجزء هكذا دون شرط ، فهي على الأرجح قروض من دول أجنبية وهيئات عالمية و « مساعدات تنمية » . ولا يخفي ضررها إن أتت من جهات رأسمالية أو هيئات امبريالية على شاكلة صندوق النقد والبنك الدولي . كما ان هذا الجزء لايجوز أن يتعدى نسبة معينة من قدرة البلاد على الدفع ( أقساط وفوائد ) ، أي يجب أن يحسب حساباً لطاقة الانتاج الوطني على المدى البعيد ، ولوضع الاحتياطي من الذهب والعملات الصعبة على المدى القصير .

وإذن فنحن نرفض القول إن ميزان المدفوعات هو الأم ، بل نشدد على قولنا بأن صافي الميزان التجاري لسورية لايجوز أن يكون سالباً بالأبعاد التي رأيناها .

# أسباب العجز التجاري

مهما حاولنا في ذكر الأسباب المؤدية الى العجز المستمر والمتزايد لتجارة سورية الخارجية ، فسوف نبقى ضمن الإطار ، بأن سورية بلد متخلف ( أو نام ) مرتبط بالسوق العالمية ويتاجر بالدرجة الأولى مع دول رأسمالية متقدمة ، مع العلم بأنه يحاول القضاء على تخلفه . فشكلة سورية هنا هي مشكلة كل البلدان المتخلفة ، وهي ليست سوى المظهر التجاري للصراع العالمي بين العالم الرأسمالي الامبريالي والشعوب المتخلفة عن ركب الحضارة البشرية . وانطلاقاً من هنا ، ومن هنا فقط نستطيع ايجاد الأسباب الحقيقية للعجز التجاري وبالتالي معرفة الطريق للقضاء عليه على المدى البعيد . على هذا الأساس نعيد العجز التجاري لسورية إلى الأشياء التالية (١) :

الاقتصاد السوري زراعي قبل كل شيء ، يساهم القطاع الزراعي فيه بتكوين ٣٦٪ من الدخل الوطني ويشغل حوالي ٦٠٪ من القوة العاملة السورية(*). أما الانتاجية في هذا القطاع فقليلة وأقل بكثير منها في الدول الرأسمالية المتقدمة ، فلم يدخل التقدم التكنيكي بشكل فعال في الزراعة . وسورية تعتمد اعتماداً شبه كلي على تصدير المنتوجات الزراعية ، فتساوي تلك أكثر من ٦٥٪ من مجموع الصادرات . أما أسعار هذه فهي على المدى القصير كثيرة التأرجح مثل كمياتها بسبب تأثير الطبيعة على الانتاج ، وهي على المدى الطويل آخذة في التناقص ، لأن الدول الرأسمالية الصناعية المسيطرة على السوق العالمية هي التي تتحكم بهذه الأسعار ( لأنها تتحكم بالعرض والطلب ) . « فبموجب احصائيات الأمم المتحدة كان معدل ارتفاع صادرات البلدان الرأسمالية المتطورة من عام ١٩٥٨ إلى عام ١٩٦٧ ٥٪ ومعدل هبوط أسعار صادرات البلدان النامية في نفس الفترة ٤٪ وتجاوزت أسعار الصادرات الصناعية من الولايات المتحدة وألمانيا الغربية هذا

---

(١) يعيد داوود حيدر العجز في تجارة سورية الخارجية الى عاملين رئيسيين : التناقض بين القوة الشرائية والانتاج ، يعني بذلك ان الطلب على البضائع ينمو بنسب أكبر من انتاجها ، والتدني المستمر لأسعار الصادرات والارتفاع الدائم لأسعار البضائع المستوردة . وهذا يتوافق مع عرضنا . قارن : ملاحظات وتعليقات حول تجارة القطر الخارجية ، في : الاقتصاد ، العدد ٦٠ . عام ١٩٧٠ ، ص ٧ .

(*) ٥٥٪ نتيجة تعداد ١٩٧٠ .

المعدل ووصلت الى ١٠٪ ومن انكلترا الى ١٢٪ في نفس الفترة » (١) .

من ناحية أخرى نرى عدم التوازن بين التصدير والاستيراد في التوزع الجغرافي للتجارة الخارجية ( جدول رقم ٧ ، ٨ ، ٩ ) ، وسنعود الى هذا الموضوع فيما بعد . ان الاستيراد بالنسبة لسورية لاشك ضروري - وربما بكميات ضخمة - من أجل التصنيع . فمعدل تراكم من ١٤٪ ( نسبة صافي تكوين الأصول الثابتة الى صافي الناتج الجغرافي - عام ١٩٦٨ ) غير كاف لتأمين معدلات عالية للتنمية الاقتصادية ، مما يستدعي طلباً لموارد خارجية تزيد من الاستيراد ( لمواد التكوين الرأسمالي ) (٢) ، كما أن ضآلة هذا المعدل دليل على ضخامة الاستهلاك ، وسنتطرق الى ذلك بعد قليل . الا أن عوامل كثيرة في قطاع الزراعة تدفع سورية ليس الى التقليل من البضائع المعدة للتصدير فحسب ، بل أيضاً الى زيادة الاستيراد من الموارد الزراعية ، أما عن تخطيط التجارة الخارجية فسوف نتكلم بعدئذ . انعرج الآن على عامل هام جداً في هذا المجال ، يمكن تسميته بـ « التحول الاجتماعي » .

منذ عام ١٩٦٣ بشكل نهائي ، ومبدئياً منذ عام ١٩٥٨ ، تسير سورية في مرحلة جديدة تتسم بمحاولة القضاء على الاقطاع واحـلال الملكيات الصغيرة محله من ناحية ، ومن ناحية أخرى ظهور رأسمالية الدولة وإزاحة رأس المال الخاص الى الدور الثاني في مجالات أهمها الصناعة والصيرفة والتجارة الخارجية . لقد كان لهذا التطور تبعات في جميع مجالات الحياة السورية ، وكذلك في المجال الذي نحن بصدده . فقد كثر عدد الموظفين والمستخدمين في جميع وزارات ومؤسسات الدولة ، كما زاد عدد العمال وعدد المالكين الزراعيين ... ونشأت طبقة واسعة متباينة ، تسمى عادة بـ « البورجوازية الصغيرة » . المهم أن هذه الفئات ، إن كانت من طبقة العمال أو من البورجوازية الصغيرة ، تختلف عن البورجوازية في أنها إما ليست مستثمرة ( كالعمال ) أو أن استثمارها لايتعدى تعويض استهلاك رأس المال ( كما هو الامر لدى الحرفيين والكسبة من البورجوازية الصغيرة ) . وهي لذلك سوف تحول أية زيادة في الدخل الى استهلاك ، على الاقل نسبة كبيرة جداً من هذه الزيادة . فخلال الفترة من ٦٣ - ١٩٦٨ كانت زيادة الاستهلاك في سورية أكبر من زيادة الدخل (باستثناء عام ١٩٦٧) ، هذا مع العلم ان الاستهلاك يساوي

---

(١) داوود حيدر ، المصدر السابق ، ص ٩ . الارقام من النشرة الاحصائية الشهرية للامم المتحدة لشهر تموز ١٩٦٧ .

(٢) انظر أيضاً ف . ب فيكتوروف : اقتصاد سورية الحديثة ، دار البعث ، دمشق ١٩٧٠ ، ص ٢٥٠ ، وقد قدر فيكتوروف معدل التراكم بـ ١٥٪ .

أكثر من ٨٠ الى ٩٠٪ من صافي الناتج الجغرافي ، وهذه نسبة كبيرة . هذا يعني زيادة الطلب النقدي على البضائع ، في حين ان الانتاج يزداد بنسب أقل ، وزيادته لاتتوافق مع زيادة الطلب على البضائع التي ترضي أذواق البورجوازية الصغيرة ، أي على بضائع مستوردة على الغالب مثل الراديوهات ، التلفزيونات ، البرادات ، الغسالات ... وغيرها من ادوات كهربائية أو غير كهربائية ، تأتي مركبة أو تركب في سورية .

وفيما يلي سنتطرق الى جوانب اخرى من مشكلة التجارة الخارجية السورية ، كما سنرى بشكل اكثر ملموسية بعض ما ذكرناه آنفاً .

## التركيب السلعي للصادرات

من الجدول رقم ٣ نرى أن حصة المواد الخام من صادرات سورية تتراوح بين الـ ٧٥٪ والـ ٨٠ فما اكثر . وهــذه الظاهرة لانراها إلا في البلدان المتخلفة . ففي عام ١٩٦٠ كان فقط ١٧،٥ من صادرات العالم الثالث ( الدول المتخلفة ) مواد مصنوعة و ٨٢،٥٪ منها مؤلفة من محروقات ( تقريباً بترول خام فقط ) ومواد أولية ومواد

جدول رقم ٣

### توزيع الصادرات السورية حسب التصنيف الاقتصادي لطبيعة المواد

( ملايين الليرات السورية )

| السنة | مجموع الصادرات | المواد الخام | | المواد نصف المصنوعة | | المواد الجاهزة | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| | | القيمة | ٪ من المجموع | القيمة | ٪ من المجموع | القيمة | ٪ من المجموع |
| ١٩٦٤ | ٦٧٢،٤ | ٥٦٦،٢ | ٨٤،٢ | ٥٠،٨ | ٧،٦ | ٥٥،٤ | ٨،٢ |
| ١٩٦٥ | ٦٤٠،٨ | ٥٠٤،١ | ٧٨،٧ | ٧٢،٩ | ١١،٤ | ٦٣،٨ | ٩،٩ |
| ١٩٦٦ | ٦٦١،٣ | ٥٢٦،٥ | ٧٩،٦ | ٧٣،٢ | ١١،١ | ٦١،٦ | ٩،٣ |
| ١٩٦٧ | ٥٩١،٣ | ٤٤٣،٨ | ٧٥،١ | ٤٩،٠ | ٨،٣ | ٩٨،٥ | ١٦،٧ |
| ١٩٦٨ | ٦٧٣،٠ | ٥١٩،٤ | ٧٧،٢ | ٥٧،٢ | ٨،٥ | ٩٦،٤ | ١٤،٣ |
| ١٩٦٩ | ٧٨٩،٩ | ٦٤٨،٧ | ٨٢،١ | ٦٤،٠ | ٨،١ | ٧٧،٢ | ٩،٨ |

ملاحظة : لا تدخل هنا أرقام النقد وبعض بنود الذهب

غذائية . ويقول بيير جاليه بأنه فقط ١١،٥ ٪ من صادرات العالم الثالث هي من المواد المصنوعة حقاً ، وذلك تصحيحاً لتصنيف الامم المتحدة(١) .

وفي حدود ما ذكر جاليه يبدو التركيب السلعي للصادرات السورية . فقد تراوحت نسبة المواد الجاهزة في الفترة الموضوعة للبحث ما بين ٨ – ١٦ ٪ ، والمواد نصف المصنوعة ما بين ٨ – ١٠ ٪ . وخلال الفترة مابين ١٩٦٤-١٩٦٩ كانت حصة المواد الخام في صعود وهبوط يتناسبان مع ارتفاع وانخفاض قيمتها المطلقة ، بشكل أنه لا يمكن استنتاج أي اتجاه في تطور صادرات المواد الخام . كذلك يبدو استنتاج اتجاه التطور بالنسبة للمواد الجاهزة والمواد نصف المصنوعة . ومع ذلك تظهر عبر تقلبات حصص المواد الخام والمواد نصف المصنوعــة ملامح الارتفاع المتردد لحصة المواد المصنوعة كلياً من الصادرات ، وبالمقابل انخفاض لحصة المواد نصف المصنوعة (٢) .

أما أهم المواد الخام التي شكلت صادراتنا منها عام ١٩٦٩ أكثر من ٨٢٪ ، فهي القطن الخام ، إذ كانت حصة القطن الخام من مجموع الصادرات في الفترة المدروسة تتراوح بين ٣٧ – ٥٠ ٪ . وهـــذه الظاهرة لا نراها إلا في الدول المتخلفة . فحصة القطن من صادرات الجمهورية العربية المتحـــدة عام ١٩٦٥ تعادل ٥٠ ٪ ، أما حصة الشاي في صادرات سيلان فكانت في نفس العام ٦٠ ٪ ، كذلك ٥٠ ٪ كانت حصة الرز في صادرات كامبوديا ، بينما بلغت ٧٢ ٪ حصة القهوة من مجموع صادرات كولومبيا (٣) . هذا على سبيل المثال فقط

وكما نرى في الجدول رقم ٥ فإن التناقص النسبي لحصة القطن الخام في صادرات سورية ليس نابعاً من ازدياد تصدير المواد الاخرى فقط . بل أيضاً وبالدرجة الاولى الى تراجع قيمة تصدير هذه المادة ( عام ٨٦ ، ٦٧ و ١٩٦٨ ) أو كون الزيادة قليلة ( عام ١٩٦٩ ) ، انطلاقاً من عام ١٩٦٣ كسنة أساس .

---

(١) Vgl. Pierre Jalée : Die Dritte Welt in der Weltwirtschaft , Frankfurt a . M . 1969, S 100 .

(٢) خلافاً لذلك يرى حواجكيه بأن تركيب الصادرات السورية تطور بشكل مرضي . والجدير بالذكر أنه يعتمد أرقاماً أخرى . قارن محمد هشام حواجكية : أضواء على خطة التجارة الخارجية لعام ١٩٦٩ ، في : الاقتصاد العدد ٣٦ ، ١٩٦٩ ، ص٧ .

(٣) قارن بيير جاليه ، المصدر المذكور ، ص ٧٣ - ٧٤ .

## جـــدول رقـــم ٤

### صادرات سورية من القطن والمنتجات القطنية ( بآلاف الليرات السورية )

| المادة / السنة | ١٩٦٣ | ١٩٦٤ | ١٩٦٥ | ١٩٦٦ | ١٩٦٧ | ١٩٦٨ | ١٩٦٩ |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| قطن خام | ٣٤٨٧٧١ | ٣٣٨٩٩٨٤ | ٢٧٩٧٤٢ | ٣٤١٥٨٤ | ٢٥٤١٠٤ | ٢٥١٠٥٥ | ٣٠٤٨٢٢ |
| ٪ من مجموع الصادرات | ٪٤٨،٤ | ٪٥٠،٤ | ٪٤٣،٤ | ٪٥١،٦ | ٪٤٣،٠ | ٪٣٧،٣ | ٪٣٨،٦ |
| خامات قطنية | ٣٤٥٥ | ٣٨٢٣ | ٤٨١٩ | ٥١٦٧ | ٥٩٩٦ | ٤٥٨٤ | ٦٠٩٣ |
| بزر القطن | ١٠٩٤٥ | ٥٦٣١ | ٦٨٧٨ | ٥٠٠٥ | ٢١٦ | ٨٩٣ | ٣١٥٨ |
| الكسبة | ٢٤١٣٨ | ٢١٦٣٩ | ٣٣٤٤٠ | ٣٦٥٢٠ | ٢٣٢٨٦ | ٢٣٦٨٦ | ٢٩٤٧٢ |
| زيت القطن | ٢٥٥٥ | ٣٧٩٣ | ١٥٥٩٧ | ١٣٧٤٧ | ٧٣٥٥ | ٨٩٦٩ | ٥٧٩٠ |
| غزول ومنسوجات ومصنوعات قطنية اخرى | ١٥٠٧٩ | ١٩٣٦٤ | ١٦٣٤٥ | ١٣٦٩٧ | ١٣٣٥٠ | ١٨٤٤٧ | ٢١٦٢٠ |
| مجموع الصادرات القطنية | ٤٠٤٩٤٣ | ٣٩٣٢١٦ | ٣٥٦٨٣١ | ٤١٥٧٢٠ | ٣٠٤٣٠٧ | ٣٠٧٦٣٤ | ٣٧٠٩٥٥ |
| مجموع الصادرات السورية | ٧٢٠٩٢٣ | ٦٧٢٥٨٦ | ٦٤٣٧٤١ | ٦٦١٣٩٠ | ٥٩١٢٧١ | ٦٧٢٩٧٨ | ٧٨٩٩١٨ |
| النسبة المئوية | ٪٥٦،٢ | ٪٥٨،٥ | ٪٥٥،٤ | ٪٦٢،٩ | ٪٥١،٥ | ٪٤٥،٧ | ٪٤٧،٠ |

ملاحظات : خامات قطنية : زعب بزر القطن ، فضلات القطن وقطن مندوف او ممشط .

: الكسبة . كسبة وتفل زيتون وغيرهـــا من بقايا استخراج الزيوت النباتية ما عدا رواسب الزيتون .

المصدر . احصاءات التجارة الخارجية لمديرية الجمارك العامة .

هذه الظاهرة التي نراها في الاقتصاد السوري يسميها الاقتصاديون ظاهرة الانتاج الواحد Monocultur. Monoproduction . ولا تتوقف حدود هـــذه الظاهرة عند ما ذكرناه حتى الآن ، بل تتعداه بأبعاد كبيرة ، ذلك لان ضمن صادرات سورية تدخل زيادة على القطن الخام مواد قطنية أولية او مصنعة مثل بزر القطن،غزول ومنسوجات قطنية وغيرها . والجدول رقم ٥ لا يدلنا على النسبة الهائلة لصادراتنا الناتجة من القطن بل يدلنا أيضاً على أهمية القطن بالنسبة للزراعة والصناعة والخدمات ، وبالتالي بالنسبة لتكوين الدخل الوطني ، وأهميته لتشغيل اليد العاملة في هذه القطاعات . وإذا علمنا أن الولايات المتحدة تستطيع في أي سنة تريد إغراق السوق العالمية بالقطن ، تبينت لنا خطورة ظاهرة المنتج الوحيد ، لا من حيث التلاعب بالاسعار وخفضها بشكل مؤذ لاقتصادنا ، بل من حيث كساد إنتاجنا من القطن وبالتالي كساد اقتصادنا لفترة طويلة، فنحن لا نستهلك من انتاجنا من القطن ( لصناعة الغزول القطنية زائداً المبيعات المحلية) إلا بنسبة ٦ – ٨٪ فقط. وإذا علمنا الى جانب ذلك باندحار القطن أمام المواد التركيبية مثل النايلون ، التريفيرا ، والديولين . . . رأينا أين سياستنا الرامية إلى زيادة انتاجنا من القطن من مجرى التطور .

بعد هذا عرض شامل وسريع لتطور أهم مواد التصدير .

تضاءل تصديرنا من القمح لدرجة الانعدام منذ عام ١٩٦٥ ، وكذلك الشعير عام ١٩٦٦ ليعود إلى الارتفاع عام ١٩٦٧ ولكنه بقي أقل من نصف ما كنا نصدره في السنوات من ١٩٦٣ – ١٩٦٥ . كذلك ازداد تصديرنا من اللحوم منذ عام ١٩٦٦ ، فكانت نسبته بين ١٩٦٦ – ١٩٦٩ من ١٣ - ١٨ ٪ من مجموع التصدير . وازداد تصديرنا من المنتجات الصناعية الكيميائية والزجاجية والمعدنية وخاصة عام ٦٨ و١٩٦٩ حتى أصبح يساوي عام ١٩٦٩ ١٢،٢ ٪ من مجموع قيمة التصدير ، وهذا يرجع الى

تصدير النفط الخام منذ عام ١٩٦٨ لاول مرة في تاريخ سورية . »

## التركيب السلعي للمستوردات

أما بالنسبة للمستوردات فالجدول رقم ٤ يبين لنا تركيبها السلعي من حيث الاستخدام . لقد كان للاستهلاك الوسيط ( تحتاج إلى بعض التصنيع ثم تذهب إلى الاستهلاك النهائي ) حصة الأسد من مستورداتنا ، إذ تراوحت بين ٥٤ — ٦١ ٪ ومن الصعب التكهن - من تطور الأرقام لوحدها على الأقل باتجاه تطورها . في حين أن نسبة الاستهلاك النهائي من مجموع الاستيراد قد تراجعت بشكل ملحوظ ، من ٢٨ ٪ عام ١٩٦٤ إلى ٢٣ ٪ عام ١٩٦٩ ، دون أن يكون هناك انقطاع في هذا التراجع ، إلا أنه يجب التنبه إلى أن قيمة الاستيراد النهائي ( القيمة المطلقة ) قد ازدادت بالرغم من ذلك بشكل كبير ، من ٢٥٥ مليون ليرة عام ٦٤ الى ٣٢٩ مليون ليرة عام ١٩٦٩ ، أي بنسبة ١٢٩ ٪ تقريباً . أما حصة السلع الرأسمالية ( السلع المخصصة للتكوين الرأسمالي ) فقد كانت في ازدياد خلال الفترة من ١٨ ٪ عام ٦٤ إلى ٢٣ ٪ عام ٦٩ ، مع انقطاع في هذا الاتجاه عام ٦٥ و ١٩٦٦ . ومع أن حصة هذه البضائع ضئيلة ، فان تزايدها ، مع تناقص حصة سلع الاستهلاك النهائي ، يدل على أن هناك عملية تصنيع تتطلب مزيداً من الاستيراد ; وفي الواقع ازداد استيراد الآلات والأجهزة عام ١٩٦٩ بالنسبة لعام ١٩٦٥ بنسبة ١٢٦ ٪ ، أي أكثر من النصف بكثير ، كما أصبح الاستيراد من وسائل النقل أكثر من ثلاث أضعاف ما كان عليه . وبالرغم من ذلك فان استيراد ما قيمته أكثر من ٣٢٩ مليون ليرة لمجرد الاستهلاك ليس قليلاً ، وحكمنا سيكون أكثر شدة عندما نعلم أن سورية قد استوردت عام ١٩٦٩ بمبلغ ٢٠٦ مليون ليرة فقط مواد غذائية ( ثمار وخضروات وسكر خام وغيرها من المواد الغذائية ) ، في حين أن قيمة استيراد هذه المواد كانت عام ١٩٦٣ تساوي ١٦٥ مليون ليرة . هذا في سورية التي وصفناها بحق منذ البداية بأنها بلد زراعي ، وبعد ست سنوات من الاصلاح الزراعي ( ١ ) .

---

( ١ ) قارن التقرير الاقتصادي العربي ، صادر عن اتحاد الغرف العربية ، كانون الاول ١٩٦٨ ، ص ٢٩٥ .

( ٢ ) صدر قانون الاصلاح الزراعي في سورية عام ١٩٥٨ ( برقم ١٦١ ) ، لكنه عطل خلال حكم الانفصال ، ثم اعيد له اعتباره بعد التعديل .

## جدول رقم ( ٥ )

## توزع الاستيراد حسب التصنيف الاقتصادي لنوع الاستخدام

## ( بملايين الليرات السورية )

| | مجموع | الاستهلاك النهائي | | الاستهلاك الوسيط | | التكوين الرأسمالي | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| | | قيمة | ٪ من المجموع | قيمة | ٪ من المجموع | قيمة | ٪ من المجموع |
| ١٩٦٤ | ٨٩٦,٤ | ٢٥٥,٣ | ٢٨,٥ | ٤٨٧,٠ | ٥٤,٣ | ١٥٤,١ | ١٧,٢ |
| ١٩٦٥ | ٨١٠,١ | ٢٢١,٥ | ٢٧,٣ | ٤٥٧,٩ | ٥٦,٥ | ١٣٠,٧ | ١٦,١ |
| ١٩٦٦ | ١١٠١,٤ | ٢٧٤,٤ | ٢٤,٩ | ٦٧٦,٠ | ٦١,٤ | ١٥١,٠ | ١٣,٧ |
| ١٩٦٧ | ١٠٠٨,٦ | ٢٤٦,٣ | ٢٤,٤ | ٥٥٠,٥ | ٥٤,٦ | ٢١١,٨ | ٢١,٠ |
| ١٩٦٨ | ١١٥٦,٩ | ٢٧٠,٨ | ٢٣,٤ | ٦٤٧,٨ | ٥٦,٠ | ٢٣٨,٣ | ٢٠,٦ |
| ١٩٦٩ | ١٤٠٥,٤ | ٣٢٩,٢ | ٢٣,٤ | ٧٤٩,٣ | ٥٣,٣ | ٣٢٦,٩ | ٢٣,٣ |

ملاحظة : لاتدخل هنا أرقام النقد وبعض بنود الذهب



### التوزع الجغرافي لتجارة سورية وعلاقتها التجارية

حتى الآن مازالت علاقاتنا الاقتصادية مع دول العالم الرأسمالي على اقوى ماتصور ( انظر الجدول رقم ٦ ) ، فحجم التبادل مع هذه الدول يساوي حوالي ٤٠ ٪ من قيمة تبادل سورية التجاري ، وهو لم يتأثر جوهرياً منذ عام ١٩٦٣ حتى الآن (حسب الأرقام المتوفره ) بأرقام العجز التجاري التي بدأت مع هذه الدول بأكثر من ٣٠٠ مليون ليرة عام ٦٣ وانتهت عام ١٩٦٩ إلى أكثر من ٤٧٤ مليون ليرة ، فكانت خسارتنا في هذا العام تساوي أكثر من ٦٠ ٪ من مجموع صادراتنا إلى العالم كله . هذا من ناحية انعكاس وتأكيد تعلق اقتصادنا بالسوق الرأسمالية العالمية ، عدا عن ذلك من مضار لاتتوقف عند حد العجز التجاري المذكور . إن هذا الواقع الاقتصادي يضع يدنا من ناحية أخرى على تناقضه مع خط البلاد السياسي !!

في السنوات الأخيرة ازدادت التجارة مع الدول الاشتراكية تزايداً كبيراً ، لانجد له مثيلاً مع أية كتلة أخرى (يجب الانتباه إلى أن المقصود هو التزايد وليس القيمة المطلقة). فخلال خمس سنوات من عام ١٩٦٥ إلى عام ١٩٦٩ زادت قيمة التبادل التجاري مع هذه الدول ( جدول رقم ٦ ) الى اكثر من الضعف . وقد كان عام ١٩٦٦ هو بداية الزيادة في المبادلات التجارية خلال هذه الفترة ، وهذا هو عام المنجزات الاشتراكية . والجدير بالذكر ان الميزان التجاري مع هذه الدول كان رابحاً حتى عام ٦٥ تقريباً ، ثم أصبح خاسراً . ولابد أن ذلك يعود الى استيراد الكثير من وسائل الانتاج وخاصة ما يتعلق بمشروع سد الفرات وغيره من المشاريع الضخمة التي وضعت في الخطة الخمسية الثانية .

إن تطور التجارة الخارجية مع البلدان الاشتراكية تبدو أهميته اكثر وضوحاً عندما نقارنه بتطورها مع المعسكر الغربي . ففي عام ١٩٦٣ كانت قيمة المبادلات التجارية مع العالم الغربي المتقدم واليابان تساوي اكثر من ٢٢٥ ٪ من قيمتها مع الدول الاشتراكية ، أما في عام ١٩٦٩ فأصبحت تقارب ١١٨ ٪ فقط . إلا ان هذا لايجوز أن يدفعنا الى التقليل من ضخامة التجارة الخارجية مع العالم الرأسمالي المتقدم ، فحتى عام ١٩٦٧ ، عام عدوان الامبريالية وعملائها ، كانت لاتزال تساوي ٣٩،٨ ٪ من مجمل المبادلات التجارية السورية ، في حين أن حصة الدول الاشتراكية كانت ٣١،١ ٪ وتراجع حصتها من ٣٩،٨ ٪ عام ١٩٦٧ الى ٣٨،٠ ٪ عام ١٩٦٩ يبدو تافهاً بمقارنته بحدة الصراع الطبقي العالمي بين الطبقات المسيطرة في العالم الرأسمالي وشعوب العالم المتخلف ( المدعو بالثالث ) .

ومن بين دول العالم الرأسمالي المتقدم تبدو السوق الاوربية المشتركة ليست أهم كتلة فحسب ، بل اهم الدول التي تتعامل معها سورية تجارياً ، ان كان هذا من جهة حصتها من مجموع المبادلات التجارية السورية أو من جهة العجز التجاري الناجم عن هذه المبادلات . ومن العجيب أن تحصل السوق الاوربية المشتركة عام ١٩٦٧ على اكبر حصة لها ( ٢٤،٦ ٪ ) خلال الفترة المدروسة باستثناء عام ١٩٦٣ . اما الميزان التجاري مع دول هذه الكتلة فهو خاسر على الدوام . وباستثناء عام ١٩٦٣ ايضاً كان مقدار العجز أعلى بكثير من قيمة صادراتنا الى هذه الدول .

من أهم دول السوق الاوربية المشتركة هي المانيا الغربية ، احدى دول عدوان حزيران ١٩٦٧ . لقد كانت ألمانيا الغربية أول بلد مصدر لسورية عام ٦٣ ، عام ٦٤ ، ٦٥ وعام ١٩٦٦ (جدول رقم ٨) . وفي عام ١٩٦٧ احتلت كبلد مصدر لسورية المرتبة

جدول رقم ٩

توزع التجارة الخارجية حسب الكتل الاقتصادية

( بملايين الليرات السورية ، + رابح ، – خاسر )

| الكتلة والمؤشر الاقتصادي | | ١٩٦٣ | ١٩٦٤ | ١٩٦٥ | ١٩٦٦ | ١٩٦٧ | ١٩٦٨ | ١٧٦٩ |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| السوق العربية المشتركة | حجم التبادل | ١٦٦٫٦ | ١٥٧٫٩ | ١٣١٫٦ | ١٤٥٫١ | ١٥٣٫٥ | ٢١٥٫٧ | ٢٣٥٫٠ |
| | الميزان | – ١٧٫٦ | – ٣٧٫١ | – ٤٦٫٠ | – ٣٩٫٣ | – ١٤٫٣ | + ٦٫٧ | – ١١٫٠ |
| مجموع البلدان العربية | حجم التبادل | ٣٥٣٫٤ | ٣٨٤٫١ | ٣٦١٫٣ | ٣٣٧٫١ | ٣٤٨٫٨ | ٤٤٧٫٣ | ٤٤٤٫٧ |
| | الميزان | + ٦٧٫٠ | + ٦٥٫٦ | + ٩٩٫٤ | + ٦٧٫١ | +١٠٢٫٣ | +١١٢٫٨ | + ٤٦٫١ |
| السوق الاوربية المشتركة | حجم التبادل | ٤٥٤٫٨ | ٣٣٣٫٤ | ٣٤٣٫٢ | ٣٨٥٫٩ | ٣٩٤٫٣ | ٤٢٠٫٥ | ٥١٣٫٦ |
| | الميزان | –١٠٤٫٢ | –١٤٦٫٤ | –١٢٤٫٤ | –١٨١٫٣ | –١٩٤٫٣ | –١٧٩٫١ | –٢٣٠٫٢ |
| العالم الرأسمالي المتقدم | حجم التبادل | ٧٧٤٫٥ | ٦٠٢٫٨ | ٦٠٩٫٧ | ٧٠٤٫٦ | ٦٣٧٫٥ | ٧١٤٫٧ | ٨٣٦٫٥ |
| | الميزان | –٣٠٧٫٥ | –٣٢١٫٦ | ٢٩٥٫٧ | –٣٨٠٫٦ | –٣٢٧٫٣ | –٣٤٢٫١ | –٤٧٤٫٣ |
| الدول الاشتراكية | حجم التبادل | ٣٤٣٫٩ | ٤٠٤٫٤ | ٣٥١٫١ | ٥٥١٫٢ | ٤٩٧٫٩ | ٥٥٧٫٩ | ٧٠٦٫٦ |
| | الميزان | +١٤٠٫٧ | +١٤٥٫٨ | + ٩١٫١ | – ٧٢٫٦ | – ١٤٦٫٧ | –٢٤٤٫٧ | –١٢٧٫٦ |

## تابع جدول رقم ٦

| الكتلة والمؤشر الاقتصادي | | ١٩٦٣ | ١٩٦٤ | ١٩٦٥ | ١٩٦٦ | ١٩٦٧ | ١٩٦٨ | ١٩٦٩ |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| بقية العالم | حجم التبادل | ١٤٦٫٦ | ١٧٩٫٧ | ١٣٣٫٩ | ١٨٤٫٢ | ١١٦٫٢ | ١٤٥٫٨ | ٢١٣٫٤ |
| | الميزان | – ٧٦٫٨ | –١١٥٫٦ | – ٦٣٫٣ | – ٥٥٫٩ | – ٤٦٫١ | – ٤٥٫٦ | – ٥٦٫٦ |
| المجموع العام | حجم التبادل | ١٦١٨٫٤ | ١٥٧١٫٠ | ١٤٥٥٫٩ | ١٧٦٤٫٨ | ١٦٠٠٫٤ | ١٨٦٥٫٦ | ٢٢٠١٫٢ |
| | الميزان | –١٧٦٫٦ | –٢٣٥٫٨ | –١٦٨٫٥ | –٤٤٢٫٠ | –٤١٧٫٨ | –٥١٩٫٦ | –٦٢١٫٤ |

ملاحظات : الدول الاشتراكية هنا : الاتحاد السوفييتي مع الديموقراطيات الشعبية في أوربا الشرقية زائداً الصين الشعبية فقط ا
السوق الاوربية المشتركة : فرنسا ، ألمانيا الغربية ، ايطاليا ، هولاندا ، بلجيكا ، واللوكسمبورغ .
العالم الرأسمالي المتقدم : أوربا الغربية ماعدا اسبانيا والبرتغال واليونان زائداً الولايات المتحدة وكندا زائداً اليابان .
بقية العالم : تجاوزاً العالم الثالث أو الدول المتخلفة .
السوق العربية المشتركة : الاردن ، العراق ، مصر والكويت منذ ١٩٦٤ ، ثم اليمن الشمالي عام ١٩٦٦ والسودان عام ١٩٦٨ .

المصدر : احصاءات التجارة الخارجية لمديرية الجمارك العامة .

# جدول رقم (٧)
## أهم البلدان المصدرة والمستوردة إلى ومن سورية
## (بملايين الليرات السورية)

| السنة | أهم البلدان المصدرة الى سورية | | أهم البلدان المستوردة من سورية | |
|---|---|---|---|---|
| | اسم البلد | قيمة الاستيراد منها | اسم البلد | قيمة التصدير اليها |
| ١٩٦٣ | المانيا الغربية | ١١٥٫٤ | لبنان | ١٠٨٫٧ |
| | بريطانيا | ٩٥٫٩ | الصين الشعبية | ٧٦٫١ |
| | الولايات المتحدة | ٦١٫٨ | ايطاليا | ٦٩٫١ |
| | العراق | ٥٦٫٤ | فرنسا | ٦٤٫٧ |
| | فرنسا | ٥٢٫٦ | الاتحاد السوفييتي | ٥٢٫٠ |
| ١٩٦٥ | المانيا الغربية | ٩٣٫٦ | لبنان | ١٣٩٫٨ |
| | بريطانيا | ٦٩٫١ | الاتحاد السوفييتي | ٦٥٫٥ |
| | العراق | ٦٦٫٦ | الصين الشعبية | ٦٣٫٧ |
| | الولايات المتحدة | ٥٥٫٤ | ايطاليا | ٤٠٫٤ |
| | فرنسا | ٥١٫٠ | رومانيا | ٣٨٫٩ |
| ١٩٦٧ | إيطاليا | ١١٣٫٤ | لبنان | ١٢٠٫٥ |
| | الاتحاد السوفييتي | ١٠٥٫٥ | الاتحاد السوفييتي | ٧٣٫٧ |
| | المانيا الغربية | ٧٦٫٥ | فرنسا | ٤٣٫٣ |
| | فرنسا | ٧٦٫٤ | اليابان | ٤٢٫٤ |
| | العراق | ٦٥٫٢ | الصين الشعبية | ٢٩٫٧ |
| ١٩٦٩ | الاتحاد السوفييتي | ١٢٥٫٩ | الاتحاد السوفييتي | ١٣٦٫١ |
| | إيطاليا | ١٢٣٫١ | لبنان | ١١٢٫٢ |
| | المانيا الغربية | ٩٩٫٤ | إيطاليا | ٩٦٫٦ |
| | فرنسا | ٩٣٫٧ | الصين الشعبية | ٤٣٫٧ |
| | العراق | ٨٨٫٤ | الاردن | ٤١٫٧ |

المصدر : احصاءات التجارة الخارجية لمديرية الجمارك العامة .

الثالثة ، وكذا الامر عام ١٩٦٩ . وبمقارنة هذا ( الجهة اليمنى من الجدول رقم ٦ ) مع سلم أهم البلدان المستوردة من سورية نتوصل الى أن أهم البلدان المصدرة لسورية هي غير اهم البلدان المستوردة منهـا . وهذا لا ضير فيه ، اذا كانت هناك معوقات اقتصادية لذلك . الا أن الجدول المذكور يقول شيئاً آخر . في عام ١٩٦٥ ، مثلاً كانت المانيا الغربية اهم بلد مصدر الى سورية ، بينما نراها على الجهة الاخرى من بـين المستوردين الخمسة الاوائل ، مع انها بحاجة الى بضائع كثيرة من بلادنا ، شأنها في ذلك شأن ايطاليا والاتحاد السوفييتي وفرنسا . بهذا كانت خسارتنا معها في ذاك العام ٧٣٫٤ مليون ليرة ، وفي عام ١٩٦٩ : ٩١٫٨ مليون ليرة ( جدول رقم ٦ ) . نفس القول يصح على دول العدوان الولايات المتحدة وبريطانيا . النقيض من ذلك نراه في حقل عام ١٩٦٩ ( الجدول رقم ٦ ) ، اذ كان الاتحاد السوفييتي اهم بلد مصدر الينا وفي نفس الوقت أهم بلد مستورد منا ، وكان الميزان التجاري معه راجحاً ، فوق ذلك .

## جدول رقم ٨
## المبادلات التجارية مع دول عدوان حزيران ١٩٦٧
(بملايين الليرات السورية)

| السنة | الولايات المتحدة الامريكية | | بريطانيـا | | ألمانيـا الغربية | |
|---|---|---|---|---|---|---|
| | تصدير اليها | استيراد منها | تصدير | استيراد | تصدير | استيراد |
| ١٩٦٣ | ١٤٫٢ | ٦١٫٨ | ١٠٫٣ | ٩٥٫٩ | ١٨١٠ | ١١٥٫٤ |
| ١٩٦٤ | ١٣٫٦ | ٥٦٫٠ | ٩٫٦ | ٧٦٫٦ | ١٥٫٤ | ٨٩٫٠ |
| ١٩٦٥ | ٨٫٣ | ٥٥٫٤ | ١٨٠٠ | ٦٩٫١ | ٢٠٫٣ | ٩٣٫٦ |
| ١٩٦٦ | ١٣٫٧ | ٨٦٫٦ | ٥٫٤ | ٦٧٫٥ | ٢٩٫٩ | ١٠٢٫٣ |
| ١٩٦٧ | ٥٫٧ | ٣٦٫٣ | ٣٫٥ | ٦٤٫١ | ١٧٫٩ | ٧٦٫٥ |
| ١٩٦٨ | ٣٫٧ | ٧٨٫٥ | ٢٫٨ | ٤٧٫٧ | ٢١٫٤ | ٦٨٫٥ |
| ١٩٦٩ | ٥٫٠ | ٥٫٩ | ٨٫٩ | ٦٤٫٩ | ٧٫٦ | ٩٩٫٤ |

المصدر . احصاءات التجارة الخارجية لمديرية الجمارك العامة .

بقي أن ندرس العلاقات التجارية السورية مع البلدان العربية . كما نرى في الجدول رقم ٦ ، ارتفعت المبادلات التجارية مع السوق العربية المشتركة منذ عام ١٩٦٥ دون

انقطاع حتى عام ١٩٦٩ ، بعد تراجعها من عام ٦٣ الى عام ١٩٦٥ . وقد كانت نسبة الزيادة من ٦٥ الى ٦٩ ، والتي قاربت ١٧٩٪ ( ١٩٦٠=١٠٠ )، اكبر من الزيادة العامة لمجمل المبادلات التجارية السورية التي ساوت ١٥١ ٪ تقريباً . الا أن هذا لا يجوز أن يغرنا ، فحصة السوق العربية المشتركة من تجارة سورية الخارجية ضئيلة جداً ، حتى انها كانت عام ٦٥ تعادل ٩ ٪ فقط ، وفي عام ٦٨ وصلت الى اكبر قيمة لها خلال الفترة المدروسة فبلغت ١١٫٦ ٪ . ولا شك ان مجال زيادة التبادل التجاري مع البلدان العربية عامة ، ودول السوق خاصة ، ليس كبيراً ، طالما تحتاج كلها الى مواد مصنعة وتصدر مواد اولية ، وطالما لم توضع خطة عامة لخلق بعض التكامل الاقتصادي (تقسيم العمل)، على ألا يؤدي ذلك الى تقسيم الوطن العربي الى بلدان زراعية وبلدان صناعيـة ، الاولى تابعة للثانية كما هي العلاقات الآن مع البلدان الرأسمالية. ولكن ، بالرغم من ذلك ، فازالت هناك امكانيات لزيادة التبادل .

ان الرغبة في ذلك ، وكجواب على موجة التكتلات الاقتصادية في العالم وما تجلب للدول العربية من مضار ، دفع بعض البلدان العربية الى خلق السوق العربية المشتركة (١) والسعي الى « وحدة اقتصادية » . لكن السوق العربية المشتركة كما هي عليه الآن غير قادرة على تحقيق الاهداف التي انشئت لاجلها. فهي خليط من دول لا تتفق بين بعضها لا بالاهداف السياسية ولا بالمصالح الاقتصادية، فأنظمة الحكم وكذلك العلاقات الاقتصادية ( النظام الاقتصادي ) مغايرة لبعضها ان لم تكن معادية . هذا الى جانب كون السوق العربية المشتركة لم تكن سوى رد فعـل متخلف للسوق العربية المشتركة والتكتلات الاقتصادية الاخرى الموجودة في العالم، انها تكتل يحذو حذو التكتلات الرأسمالية الصناعية المتقدمة بأهدافه وأساليبه وقراراته (٢) .

## اقتراحات عامة حول السياسة التجارية

من الطبيعي – اعتماداً على ما ذكرناه – أن يكون الهدف البعيد والاطار العـام لسياسة سورية في الاقتصاد عامة والتجارة الخارجية خاصة هو جعل سورية غير متخلفة

---

(١) بعض المعلومات حول هذه النقطة لدى يحيى عروكي: السوق العربية المشتركة ، دمشق ١٩٧٠ .

(٢) انظر ايضاً طه بالي : السوق العربية المشتركة ، في : المعرفة ، العدد ١٠٩ ، عام ١٩٧١ ، ص ١٨ - ٤٢ .

( اي نامية حقاً وليس بالاسم فقط ) . الا أن هــذا قول فضفاض وقابل للتطبيق في اوجه عديدة . أقل قبولاً للتأويلات المناقضة لبعضها ، هو قولنا باتباع سورية الطريق الاشتراكي للتراكم (١) والخروج من العلاقة التبعية في معاملاتها الاقتصادية ومبادلاتها التجارية . وخطر التبعية لايكمن في أن يكون للتصدير والاستيراد تلك النسبة الكبيرة من الدخل الوطني ، مع أن هذا يؤدي الى ذلك - . بل في الاجابة على السؤال : هل للتجارة الخارجية مركزاً اساسياً في الاقتصاد السوري ام أنها تلعب دوراً متمماً ( او دوراً مساعداً ) للدورة الاقتصادية ؟ . وبتعبير آخر : هل بامكان التجارة الخارجية لسبب من الاسباب أن توقع سورية في أزمة اقتصادية ؟

إن الجواب سيكون بالايجـــاب ! وطلبنا أن يكون الجواب بالنفي يتضمن مطالب كثيرة سنأتي على ذكر أهمها .

انه يعني بادىء ذي بدء تصنيع سورية ، وجعل الانتاج الصناعي ليس بالدرجة الاولى للمواد الاستهلاكية ، بل للمواد الاستثمارية ( الصناعة الثقيلة ) ، ما يسمح لنـــا بالاستعاضة اولاً عن نسبة كبيرة من مستورداتنا وبازدياد من صادراتنا (للمواد الجاهزة)، بالمقارنة مع هذا تقل أهمية كون الميزان التجاري خاسراً ، لان ماذكرناه يعني ان العجز سيقضى عليه على المدى البعيد وجذرياً . فليس العجز كعجز مرفوضاً ، بـــل العجز المرضي المزمن .

المشكلة في تجارة سورية الخارجية لاتكمن اذاً في الحالة الاقتصادية Conjuctur بقدر ماتكمن في البنية الاقتصادية Structur . فلا تهمنا التقلبات في الحالة الاقتصادية ( المعدومة تقريباً . لأن القطاع الخاص يلعب الدور الثاني بعد القطاع العام) ولاالتقلبات الموسمية ، التي هي بحد ذاتها تابعة بالدرجة الاولى من الهيكل الاقتصادي ، بقدر مايهمنا الهيكل الاقتصادي نفسه ، وقد رأينا أن فترة المواسم الجيدة ٦٢ - ٦٥ ( التي اعقبت فترة الجفاف من ١٩٥٧ - ١٩٦١ ) لم تؤثر جوهرياً على تجارتنا الخارجية ولم تغير من بنيتها فتساوت في ذلك مع فترة الجفاف التي اعقبتها من ٦٦ - ١٩٧٠ .

---

(١) نشر الكثير حول هذه النقطة باللغات الاجنبية القليل منها مترجم ، من هذه الترجمات :

التقدم الاقتصادي والتعاون الدولي ، ثلاث محاضرات لـ أوسكار لانجه ، في: مجموعة محاضرات العام الدراسي السابع ، صادرة عن معهد الدراسات المصرفية ، القاهرة١٩٦١ بصورة خاصة المحاضرة الاولى .

يجب اذاً ادخال التقدم التكني في القطاع الزراعي ، يجب تحديثه وتكنيته واعادة تنظيمه على أساس تعاوني وكولخوزي ، وليس تفتيت الأرض الى ملكيات صغيرة تخلق الظروف المواتية لانتعاش الاقطاعية وسيطرة الرأسمالية الزراعية .

هذا سيؤدي الى خلق البطالة المسماة بـ « البطالة التكنولوجية » تضاف الى البطالة الظاهرة والبطالة المقنعة ( عمل عرضي ، انشغال غير منتج ... ) قوة العمل الفائضة هذه يجب لذلك تحويلها الى القطاع الصناعي ، على سبيل المثال . بكلمة اخرى : من اللازم اعادة توزيع قوة العمل الموجودة في سورية ، فهناك مجالات فيها اكثر من اشباع بقوة العمل ، بينما تفتقر مجالات اخرى الى قوة عمل . وهـــذه الظاهرة لانراها في القطاع الزراعي ، بل في كل قطاع على حدة ، وبين القطاعات ، وفي دوائر الدولة ايضاً ، وحتى بين اقسام الدائرة الواحدة !

في الحقيقة لانرى مشكلة القطاع الزراعي في تأثير الطبيعة المتقلب فحسب ، بل في مساعدة سورية نفسها الطبيعة كي تؤثر بشكل اعنف في مقدرات البلاد . هذا يكمن فيما سميناه بـ « الانتاج الوحيد » والذي يتصف باعتماده شبه الكلي على مادة او قلة قليلة من المواد . والمطلوب هو اذاً تنويع المنتوجات وتصنيعها ، والاخذ بسياسة الانتاج للسوق الداخلية اولا وللسوق الخارجية في الدرجة الثانية . بهذا تحقق هدفـــاً آخر هو الاستغناء عن استيراد كثير من المواد الزراعية التي يمكن انتاجها لو بذلت العناية لذلك. وانه لمن المؤسف ان تستورد سورية تلك الكميات الضخمة من المواد الزراعية (ماسبق وذكرناه ) ، مع أن هناك اولا كميات ضخمة من المحاصيل الزراعية تهدر ( بتجاوز كمية الاستهلاك لحد الاشباع أو زيادة عن الحاجة أو بالتلف ) في شهور الموسم لعـــدم تعليبها أو حفظها ( أي لعدم ادخارها ) ، وفي شهور أخرى تضطر سورية لاستيرادها او استيراد معلباتها ، وثانياً في حين أننا ننتج مثلا القطن بكميات ضخمة ولانستهلك منها سوى أقل من ١٥٪ تصدر الباقي لكي تستورد مايمكن انتاجه .

المطلوب هو بصورة عامة تغيير الهيكل السلعي للصادرات والمستوردات. فبدل تصدير المواد الزراعية خاماً ، يجب – كما ذكرنا – تصديرها مصنعة شيئاً فشيئاً ، وربط هذا التصدير بالاستيراد ، الاستيراد مما لايمكن لقوة عملنا وأرضنـــا ان تنتجه . ولكي تستطيع سورية تحقيق ذلك ، عليها ان تعتمد اعتماداً شبه كلي على مبدأ المقايضة ( شراء مقابل شراء بقيم متساوية او متقاربة ) ومبدأ التقاص ( تصفية الحساب ليس لدى كل صفقة بل بعد مدة معينة وبدون فوائد ) وعلى نظام الحصص في علاقاتها مع البـــلدان

الأخرى (١) ، وكل هذا عن طريق والى جانب اتفاقيات ثنائية او جماعية للتجارة والمدفوعات ، وخاصة مع الدول الاشتراكية والبلدان العربية والبلدان المتخلفة الاخرى .

وقد خطت سورية خطوة أساسية اولى في هذا المضمار منذ ان أممت جزءاً كبيراً من التجارة الخارجية عام ١٩٦٥ يساوي حوالي ٤٠٪ ، وتابعت العمل على هذا الطريق حتى اصبحت التجارة الخارجية عام ١٩٦٩ بنسبة ٧٥٪ بيد القطاع العام ممثلاً بـ « سيمكس » بمؤسساتها الخمسة المتخصصة (٢) . ولكن للأسف مازالت التجارة الداخلية كلها تقريباً بيد القطاع الخاص ، ولاتخفى علينا العلاقة القوية بين التجارتين الخارجية والداخلية . فماذا تفيد تجارة خارجية تلبي رغبات الشعب ، ان احتكرت مستورداتها المنتظرة بفارغ الصبر من قبل التجار ؟! هذا يدعونا الى المطالبة بالاهتمام بالتجارة الداخلية وتعميم تجربة المؤسسات الاستهلاكية العائدة الى القطاع العام او القطاع التعاوني .

كل هذا يساعد على تخطيط التجارة الخارجية . وتخطيط التجارة لازم ، اذا اردنا تحقيق الاهداف السياسية والاقتصادية المذكورة من استقلال سياسي الى تنمية اقتصادية الى استقلالية اقتصادية . هذه الاهداف تدعونا مثلاً الى تأمين اكثر مانستورده ( ان لم يكن كله ) ليس من دول عدوان حزيران وحماة إسرائيل بل من بلدان اشتراكية مثل الاتحاد السوفييتي وتشيكوسلوفاكيا ... وغيرها . ومن أجل التخطيط ايضاً ، تبدو المعاملات مع هذه البلدان أفضل وأسهل بسبب كون التجارة الخارجية هناك بيد الدولة اولاً وتخطيطه ثانياً . ولذلك يمكن تأمين سوق مضمونة ومستقرة لتصريف بضائعنا (٣) . كما يمكن مبادلة سلع جاهزة ونصف مصنوعة من سورية مقابل مواد تكوين رأسمالي (وسائل انتاج ) من هذه الدول . وكذلك يمكن تثبيت الاسعار مع هذه الدول كما حدث للسكر بين كوبا والاتحاد السوفيتي . كل هذا يساعد على تخطيط تجارتنا الخارجية وتخلصنا من فوضوية واستغلالية وتسلطية السوق الرأسمالية العالمية .

وقد قامت سورية بتخطيط التجارة الخارجية . ويعود نقصان عجز عام ١٩٧٠

---

(١) انظر جادبوز : أهمية وضع الضوابط للتجارة الخارجية ، في : الاقتصاد ، العدد ٦٣-٦٤ ، ١٩٧٠ ، ص ٥ ومايتبعها .

(٢) التقرير الاقتصادي العربي ، صادر عن اتحاد الغرف العربية ، كانون الاول ١٩٦٩ ، ص ٢٣٨ — ٢٣٩ .

(٣) انظر فيكتوروف ، في المصدر المذكور ، ص ٢٤١

عن العام الذي سبقه (١) ـ حسب إعتقادنا ـ الى حد كبير الى خطة التجارة الخارجية لذلك العام ، الا ان النتيجة لم تكن مرضية . فالتخطيط اولا ناقص ، مثال ذلك انقيمة الصادرات في مشروع الخطة الخمسية الثالثة للتجارة الخارجية عـــام ١٩٧١ — ١٩٧٥ تستخرج بطرح الاستهلاك المحلي المرتقب من الانتاج المتوقع وبأسعار ١٩٦٣ ، دون اعتبار للاسواق الخارجية ومع خطأ توقع الانتاج الزراعي الواقع الآن تحت رحمة الطبيعة ، كما نعلم . ولذلك فان التخطيط ثانيا صعب وتحقيقه أصعب . الى جانب ذلك ، وجزئياً بناء عليه ايضاً ، ليس للارقام التوجيهية الصادرة عن هيئة تخطيط الدولة قوة الالزام لجميع الاجهزة ومؤسسات التجارة الخارجية (٢) ... فالمطلوب تخطيط التجارة الخارجية انطلاقا من مبادىء واضحة ( كالتي ذكرنا ) ومع مراعاة للعوامل التي عرضناها ضمن خطة اقتصادية شاملة على المدى الطويل والمتوسط والقصير ، وبشكل يمكن تطبيقها فيه اولاً ويتحتم تطبيقها على الجهات المعنية ثانياً .

بالترابط مع ذلك ، وباعتبار ان بعض الصناعات تحتاج الى سوق اوسع من السوق السورية ، فان الوحدة العربية تبدو ضرورة اقتصادية كما هي ضرورة قومية . لذلك فان اي اجراء اقتصادي على المدى الطويل يجب ان يحسب حساباً لامكانيات وحاجات البلاد العربية الاخرى ، ولكنه لايبقى مطلقاً الانتظار حتى تحقيق هذه الوحدة . حتى ذلك الوقت يمكن التوصل الى هذا بعقد الاتفاقات الجماعية والثنائية القابلة للتطبيق والتي تراعي مبدأ التكامل الاقتصادي ( تقسيم العمل ) ، والهادفة الى زيادة المبادلات التجارية الى اقصى حد ممكن ، وتطبيق مبدأ المعاملة التفضيلية ومنها خفض الرسوم الجمركية للبضائع ذات المنشأ العربي ( كلياً ) الى ادنى حد ممكن ... الى آخره ، مع شرط المعاملة بالمثل ، وبالرغم من ان اكثر هذا يطبق حالياً ، فان الجدول رقم ٦ يبين ان مايطبق غير كاف .

اما الشكل الحالي لتجارة سورية الخارجية ، كما جاء في هذه الدراسة وكما توضح الجداول المرفقة ، فهو غير مقبول لامن سياسة خارجية ضد امبريالية ولا من سياسة تجارية تبني الاستقلال الاقتصادي والتنمية ولا من بلد يعلن انتمائه الى « العالم الثالث » جعل الوحدة العربية واحداً من مبادئه الرئيسية .

---

(١) يعود نقصان عجز عام ١٩٦٧ عن العام الذي سبقه الى حرب حزيران والاجراءات الاقتصادية التي تبعته . قارن الاقتصاد العربي ، العدد ٢٢٠ ، عام ١٩٦٧ ص ٤ . وداوود حيدو ، المصدر المذكور ، ص ٧

(٢) محمد هشام خواجكية ، في المصدر المذكور ، ص ٧ .

# البحث العلمي

د. سلمان قطاية

« ان قوة أمة ما ليست في ثرواتها المادية أو أطنان الفولاذ أو البترول ولا حتى في الدولار ، بل في القدرة الابداعية لعلمائها وتقنيتها ».

لوى أرسان



« فير كور » كاتب فرنسي معروف . من أشهر مؤلفاته رواية اسمها : الحيوانات المنفصلة عن الطبيعة ( Les animaux dénaturés ) كتبها عام ١٩٥٢.

وموجز الرواية : أن بعثة علميـــة بريطانية تذهب الى منطقة مجهولة في أوستراليا ولدى توغلها في الغابات والأدغال تكتشف آثار مخلوقات شبه آدمية ، ثم لاتلبث أن تجد تلك المخلوقات فاذا بها « الحلقة المفقودة بين الانسان والقرد » تمشي منتصبة تقريباً ، جسمها مغطى بشعر خفيف ، وتقاطيع وجوهها قريبة من

تقاطيع وجوه بني آدم. فيسمونها: ( paranthropus) أو بإختصار ( les Tropis )
وبسبب هذا الاكتشاف في بريطانيا ثم في أوروبا كلها ضجة كبيرة .

ويهرع أحد الصحافيين المدعى « دوج » الى المكان ليكتب عن الموضوع ، ويدفعه الفضول الى اصطحاب أنثى هذه المخلوقات الى لندن ، ثم تحمل منه هذه الأنثى بواسطة التلقيح الاصطناعي ، ثم لاتلبث أن تضع طفلاً صغيراً يعترف الصحفي بأبوته له ، ثم يقتله .

ويسلم دوج نفسه الى القضاء ! ولكن القضاء البريطاني المشهور بدقته وموضوعيته يقع في حيرة شديدة: فإن اعترف بأن الطفل مخلوق بشري ، كان هذا معناه أن الصحفي قد اقترف جريمة قتل عن سابق عمد وإصرار ويجب اعدامه . وان لم يكن الوليد بشراً بل حيواناً فمعنى ذلك أن الصحفي دوج بريء .

وشيئاً فشيئاً يجد القاضي نفسه مضطراً الى البحث عن تعريف للانسان حتى يتمكن من الفصل في القضية . ويقع العلماء بسبب ذلك في مناقشات وتناقضات ، ويشكل البرلمان الانكليزي لجنة خاصة لدراسة الموضوع ، تصل في نهاية البحث على ان الانسان يتمتع بذكاء خاص به يجعله ينفصل عن الطبيعة ، فيقف أمامها يسائلها ويسائل نفسه عن أسرارها وماهيتها . بينما يظل الحيوان جزءاً لاينفصل عن الطبيعة .

هذه الصفة الذكاء البشري مكنت الانسان من دراسة الطبيعة واكتشاف قوانينها ومن ثم إخضاع هذه القوانين في سبيل تأمين سعادته ورفاهيته .

هنا إذن يكمن الفرق الجوهري بين الانسان والحيوان . عندئذ تقرر المحكمة بأن تلك المخلوقات هي بشر ، وتبرىء الصحفي لأنه عندما قام بفعلته لم يكن يدري بأن تلك المخلوقات بشر أم لا ؟.

مردت هذه المقدمة لأقول إن الذكاء البشري يتميز عن الذكاء الحيواني بكونه مبدعاً في كل المجالات وأهمها : العلم . فكلما تقدم الانسان في مجال العلم تقدم في إنسانيته .

ان العلم ، من وراء معرفة قوانين الطبيعة وتسخيرها لسعادة البشر ، يهدف الى تحسين الوضع الانساني ، فهو يحررهم من الجوع والألم ويكافح المرض والموت . ويحارب الاستغلال المبني على الجهل مهما كان نوع هذا الاستغلال .

يهدف العلم ايضاً الى معرفة أفضل ، وفهم أعمق لكل ماهو موجود ، وخلق واقع جديد .

وللعلم وجهان : أحدهما يدعى بالعلوم الأساسية أو النظرية أو الأكاديمية . وهو يهدف الى كشف القوانين وما يسمى بالحقائق العلمية ، ووجه آخر يهدف الى استغلال الطبيعة والسيطرة على الحياة . ويبحث عن نتائج ذات فائدة عملية مباشرة وهو مايسمى بالعلوم التطبيقية .



ولكن هذه النظرة سطحية ومبسطة . والواقع ليس ثمة من حدود بين هذين الوجهين للعلم . فتيار الفكر يسري دوماً من واحد الى آخر وبالعكس . والعلم واحد لايتجزأ . وهكذا فان اكتشاف الكهرباء كانت نتيجة دراسة أمراض دود القز . وقد يكتشف العالم إكتشافاً ما يبدو في ساعته نظرياً لافائدة ترجى منه ، ولكن بعد مضي سنوات يأتي عالم آخر وإذا به يجعل من الاكتشاف الأول حدثاً هاماً وإختراعاً تطبيقياً ذا أهمية كبرى .

وهذا مايدلنا أيضاً على انه من الصعب توجيه العلم لغاية نفعية آنية ، والوصول بهذه الطريقة الى اكتشافات رائعة .

ويبدو انه يلزم بعض الوقت حتى تتراكم المعلومات والاكتشافات ليصل

الانسان الى إكتشاف هام . والعلم يتقدم بخطوات قصيرة صغيرة متلاحقة وما من إكتشاف الا ويستند على إكتشاف سابق له ، فلولا المجهر ، مثلا ، لما استطاع باستور اكتشاف الباكتريا كما في مثالنا السابق . ويقول باستور في هذا الصدد : « يعيش العلم من حلول متلاحقة معطاة كجواب لأسئلة دقيقة تزداد دقة وإقتراباً من ماهية الظواهر الطبيعية نفسها ».

وهكذا فان تقدم العلم يكون بايقاع غير منتظم : يتقدم ببطء أحياناً ويبقى في مكانه أحياناً أخرى ، وقد يقفز قفزات قوية الى الأمام . ويسمى ذلك البقاء « الأعمال العلمية » . ويقود السير البطيء في النهاية الى نتائج ؛ أما القفزات فتسمى عادة في لغة الصحافة « اكتشافات » وفي لغة العلماء « نتائج هامة » ومنها مايكون ثورياً أي يقضي على كل الخلافات السابقة ويفتح طرقاً جديدة وواسعة للبحث : كاكتشاف غاليله لدوران الأرض ، أو اكتشاف رادرفورد لامتداد الجسيمات ألفا ، أو اكتشاف الجراثيم ... الخ . وكما يقول جان روستان : « كلما تقدم العلم ، كثرت التفاصيل وتعقدت ، ولكن الخطوط الكبرى تتجلى » .

والعلم يتقدم ايضاً بسبب تكدس المعلومات الواردة من مختلف أنحاء المعمورة ومن مختلف ميادين العلوم . لذا فقد كان العلم عملاً جماعياً مشتركاً . يقول كولان : « ان كل عـــالم ليس إلا نبضة بين ملايين النبضات ، حيث تولد الحقيقة » .

ورغم ذلك ، لقد اتخذ العلم طابعاً تنافسياً شبيهاً بالسباقات الرياضية ، ومثلنا على ذلك السباق بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية في ميدان غزو الفضاء . لذا كان عامل الزمن هاماً ، لأن أول من يعلن رسمياً عن اكتشافه لايكسب جائزة نوبل فحسب بل يدخل اسمه في قائمة الخالدين علاوة على الدعاية

الكبيرة التي يحصل عليها العـالم لنفسه ولأمته . وهذا التنافس يفسر عدة ظواهر :

أولاً - جرأة بعض العلماء على القيام بأبحاث لافائدة أكيدة ترجى منها ، سوى السبق في تسجيل البحث على اسمهم .

وهكذا فإن الدكتور برنار الذي أجرى أول عملية زرع قلب على الانسان الحي لم ينل جائزة نوبل ، لأن فكرة الزرع كانت موجودة عند الكثيرين من العلماء ولم تنفذ على الانسان لأن النتائج لم تكن موثوقة ولأن الأبحاث لم تتعمق حول موضوع زرع الأعضاء . ونجحت عمليـة برنارد جراحياً وفشلت فيزيولوجياً .

ثانياً - عدم نشر المعلومات ، بل على العكس كتمانها ، وهذا مايعرقل تقدم العلم ، لأن كل مجموعة تعمل لوحدها بدل المشاركة .

ثالثاً - ان الحرص على الاستئثار بالأسرار العلمية خاصة الأسرار ذات الطبيعة العسكرية والاقتصادية ، زاد من نار الحرب البـاردة . وأصبحت المخابرات تركز عملها في التجسس على الأبحاث العلمية وسرقتها ، بل تعدت ذلك ووصلت الى خطف العلماء ، أو إغوائهم بالهجرة من بلادهم . ولا بدّ من وقفة قصيرة أمام هذا الموضوع الهـام . وهو هجرة الأدمغة من أوروبا وبلاد العالم الثالث الى الولايات المتحدة الأميركية .

وكأنما عرف الاميركيون ماقاله تشـرشل ذات يوم من ان « الامبراطوريات الحديثة هي امبراطوريات الفكر » أو ماقاله لوي أرمان : « ان قوة امة ما ليست في ثرواتها المادية أو أطنان الفولاذ أو البترول ولا حتى الدولار ،

بل في القدرة الابداعية لعلمائها وتقنيها ، لذلك نراهم يشددون ويبذلون المال والجهد في سبيل استقطاب العلماء في بلادهم .

وهجرة الأدمغة ليست بالشيء الجديد . ففي خلال القرن الثالث قبل الميلاد ترك اثينا كثير من العلماء وهاجروا الى الاسكندرية تجذبهم اليها مكانتها العلمية المرموقة ومكتبتها الشهيرة ، فكانت تلك الهجرة بداية انحطاط اثينا .

وعندما سقطت القسطنطينية في ايدي العثمانيين هرب علماؤها الى اوروبا فكان ذلك بداية عصر النهضة؛ اذ اسست المراكز العلمية الشهيرة أمثال : بادوفا وهايدلبيرج وأوكسفورد . منذ القرن التاسع عشر والولايات المتحدة الاميركية تستقطب العلماء الاوروبيين . واعتباراً من عام ١٩٣٠ وبسبب ظهـــور الفاشية الهتلرية ، هرب عدد كبير من العلماء الالمان والنمساويين منهم اينشتاين وفيرمي .

يقول كلارك مدير مركز الاحصاء الطبي في مانشستر في انجلترا : « لن تستطيع بريطانيا ان تستمر في الحياة في الميدان العلمي والتقني اكثر من خمس سنوات ، انا لا امانع من استمراري في العمل في بريطانيا ولكنني اخشى حسب ما أرى سير الأمور في بلدي ان اهاجر الى الولايات المتحدة مكرها وخلال بضع سنوات . وحتى الطلاب الصغار تراهم يتوجهون الى اميريكا لبيع جهودهم» ويقول الاستاذ انجستروم : « ان السويد قد فقدت الى الابد رجالا من الدرجة الاولى اذ لم يجدوا لدينا المناخ المناسب للعمل » .

وتدل الاحصائيات على ان / ٢٥٪ / من الاطباء المتخرجين حديثا في انكلترا يهاجرون سنوياً الى الولايات المتحدة . والخسارة ليست في الكمية وحسب ، بل في المستوى لان من يهاجر هو الانسان الطموح ، الذكي ، النشيط ، الواثق من نفسه .

وليس غريباً أن تجذب الولايات المتحدة العلماء يكفي ان نعلم انها تصرف :

٦٠ مليار دولار للتربية

٢٧ » » الأبحاث العلمية

٥٠ » » للمجموعة العلمية

٣٠ » » لوسائل الاتصال فيما بينها

هذا عدا العديد من المؤسسات الخاصة التي تنشط في ميدان البحث العلمي .

وتتجه النية حالياً الى بناء مدن فكرية ( Idéopolis ) مؤلفة من جامعة بقربها منطقة صناعية . وهكذا ففي التكساس معامل اوستن مؤلفة من خمس عشرة شركة تعتمد في اختيار مهندسيها على جامعة تضم / ٢٧ / الف طالب .

أما بالنسبة الى قطرنا فخسارتنا في الأدمغة العلمية كبيرة وهي على أنواع : إما طلاب يذهبون للدراسة في اوروبا او اميركا فلا يعودون ، او يرجعون الى بلادهم خلال فترة ثم يهاجرون ، او يبقون في بلادهم مشلولين فكرياً دون نشاط علمي يذكر . وهذا ما أسميه بالهجرة الى الداخل . ولا يقتصر الأمر على قطرنا فقط ، بل ان معظم البلاد النامية مصابة أيضاً ، حتى اسرائيل ؛ فالهجرة منها كبيرة ، لكن ما يوازنها هو هجرة الأدمغة اليها .



* * *

وضع العالم الباحث : يقول أحد العلماء الكنديين « ان البحث العلمي ليس عملاً روتينياً ، فهو يتطلب دوماً حماسة ، وفكراً ناقداً ، وايماناً بفائدته النهائية وباستمراره . ولا يمكن أن يقوم بهذا ، الا رجال نابهون ليس بألقابهم العلمية بل بصفاتهم الشخصية .

والواقع أن الصفات الشخصية ذات أهمية كبرى، اذ يجب على العالم الباحث أن يكون دوماً على استعداد لمراجعة مفاهيمه العلمية على ضوء النتائج الحديثة ، أن يعرف عدة لغات ، أن يراجع الأبحاث من كل زمان ومكان ، أن يتمتع بفكر موجه نحو توضيح وشرح وتنظيم المعلومات ، أكثر من توجهه نحو الاكتشاف بالمعنى المعروف . كما يجب أن لا يكون اختصاصياً ذا فكر ضيق ملتزم باختصاصه فقط ، بل أن يمتد فكره على جبهة عريضة ، تؤمن له ثقافة فكرية علمية عامة . كما يجب أن يعرف كيفية عرض الافكار بشكلها الحديث . وأن تكون له علاقات ودية مستمرة مع الاخصائيين في الفروع الأخرى .

ومن الضروري أن يكون له اهتمام خاص بالطلاب المبتدئين ليغرس في نفوسهم الفضول الفكري ، فهو الخطوة الأولى نحو الفكر العلمي وروح البحث ، كذلك حب توسيع الأفق الفكري ، بدل التفكير المباشر بالربح المادي الذي سيحصل عليه الطالب في نهاية دراسته بعد حصوله على الشهادة .



وهكذا فان دور العالم تجاه الطلاب كبير أو بمعنى آخر أن دور الجامعة في المجتمعات كبير جداً .

فالجامعة هي التي تقدم للمجتمع الطبيب والمهندس والمعلم ... الخ . إلا أن هؤلاء اذا اكتفوا بدور بسيط مقتصر على التقديم الروتيني للخدمات لأبناء الشعب ، كان دورهم ثانوياً غير ذي تأثير في مجتمعهم . ولكي يغيروا ويطوروا المجتمع يجب أن يكونوا قادرين على الابداع في مجال اختصاصاتهم والابداع هنا هو البحث العلمي .

والا اصبحت الجامعة عبارة عن معمل لفبركة الاطباء والمهندسين

والخامين . فالجامعة لاتصبح جديرة بهذا الاسم وبتلك المكانة المرموقة إلا بقدر ما تقدم من أبحاث علمية رصينة ، وتجد لمشكلات المجتمع حلولاً علميــة في كل الميادين : التقنية، والاجتماعية ، والصحية حتى والعسكرية .

ولقد أدرك الصهاينة أهمية دور الجامعة والعلم في تنميـــة المجتمعات ، بحكم كونهم لصيقين بالحضارة الأوروبية ، لذا فقد قررت المنظمة الصهيونية قبل الحرب العالمية الأولى أن تقيم جامعات رسالتها الأولى البحث العلمي . وهكذا بدأت بتأسيس الجامعات منذ عام ١٩٢٥ ، وأصبح فيها عام ١٩٣٤ ثلاث جامعات علماً أن عدد الصهاينة في فلسطين في ذلك الحين كان لايتجاوز ( ٢٠٠ ) الف .

ولا عجب فقد كان زعيم الحركة الصهيونيـــة ، ثم أول رئيس جمهورية لاسرائيل الباحث الكيميائي « وايزمان » .

الناحية المادية : بدهي أن المال هو عصب الحياة كما يقال ، وهو بالنسبة للبحث العلمي ذو أهمية كبرى . فلقد كان العالم في القرن الماضي مثلاً يقوم بأبحاثه في أوقات فراغه وفي أمكنة متواضعة ، يفبرك هو نفسه أدواته وآلاته .ولكن الحـــال قد اختلف كثيرا فليس بامكان احد أن يقتني تلك الأجهزة الضخمة الحديثة والكثيرة .

وحتى في القرن الماضي كان العلماء يشكون . كتب باستور الى الامبراطور نابليون الثالث يقول : « كيف أستطيع أن أقوم بأبحاث عن الحشكريشة والفيروس ، وبتجارب نقل الأمراض ، بدون مكان مناسب لوضع الحيوانات وتربيتها » ... وبعد أن يشرح ارتفاع ثمن الأوائل والحيوانات يقول : « هذه الأبحاث وغيرها لايمكن اجراؤها إلا في مخبر واسع . لقد حان الوقت لتحرير العلوم

التجريبية من البؤس الذي يعترض طريقها ، ولقد اجيب على ذلك في عام ١٨٦٧ بأنه من المستحيل الموافقة على انشاء مختبر يكلف بضعة آلاف من الفرنكات ، بينما وافق الامبراطور على انفاق عدة ملايين لبناء الأوبرا في باريس ! ولم يكن الهدف من هذا البناء خدمة الفن بل كان الهدف تخليد اسم الأمبراطور وابتكار اسلوب معماري يحمل اسمه على غرار أسلافه من الملوك ، واقامة حفلات باذخة .

كان الرومانتيكيون في السابق يدعون بأن البؤس والشقاء عاملان مهمان لشحذ همة وفكر العلماء ، ويعجبون بمدام كوري وزوجها بيير اللذين اكتشفا الراديوم في مختبر بسيط وصفه أحدهم بقوله : « انه مزيج من الاسطبل والقبو لحفظ الفحم » إلا أن هذه الأفكار مضت الى غير رجعة . ولقد أدرك الجميع أهمية دعم البحث العلمي بالأموال الكثيرة ، ففي فرنسا مثلا تبنت الدولة انشاء « مركز قومي للبحوث العلمية » يعمل فيه قرابة خمسة آلاف باحث . وكرست لشراء أدوات له عام ١٩٦٣ ، ( ٦٨ ) مليون فرنك ، ثم ( ٥٣ ) مليون عام ١٩٦٤ ، ثم ( ٥٣ ) مليون اخرى عام ١٩٦٥ .

إلا أن الأبحاث العلمية تستهلك أموالاً كثيرة أحياناً بدون مردود مادي. وهذا ما يشكل عقبة جدية أمام المسؤولين حينما ينظمون الميزانيات .

إن المغامرة من صفات العلم البارزة : . إذ يواصل العالم أبحاثه في ميدان ما دون أن يعرف سلفاً النتيجة التي سيصل اليها ، ودون أن يستطيع تقييم تلك النتيجة . وهكذا فبينما كانت الأموال والجهود تبذل لتحسين مروحة الطائرات ، والبحث عن أفضل محرك مكبسي لها ، كانت فئة من العلماء تطالب بالأموال لاجراء البحوث عن المحركات النفاثة والسفر بين الكواكب ! وكان الناس في

ذلك الحين ينظرون اليهم باستنكار و كأنهم مجانين . ولكننا اذا تأملنا في تاريخ العلم ورجالاته، لوجدنا أن من تجرأ وغامر بعناد هو الذي وصل الى الاكتشافات الهامة . لذا كان على المسؤولين أن يتركوا للعالم الثقة ، الحرية المطلقة في العمل دون تحديد أو تقنين في الأموال . ولكن من هي المؤسسة التي ترضى بصرف الأموال الباهظة في أبحاث غير أكيدة أو موثوقة أو أنها تبدو كألعاب أطفال أو ابحاث غير مجدية في نظر المسؤولين الماليين ؟

ولكن يجب الاعتراف بأن ثمة ميدانين ترضى الدول والمؤسسات بصرف المال دون حساب فيها وهما : ميدان الأبحاث العسكرية والابحاث الصناعية الاقتصادية . إلا أنها حتى في هذين الميدانين ، تضع المخططات سلفاً للوصول الى نتائج محددة حسب خطة موضوعة ، وهكذا فقد حددت الغايات ووضعت المخططات في الطيران من أجل ايجاد أفضل محرك مكبسي فضاعت كل تلك الجهود والأموال عندما وجد المحرك النفاث .



ان حرية العالم في عمله ضرورية جداً ، ومنحه الثقة والمال اللازمين ضروري أيضاً . ولقد عانى العلماء منذ قديم الزمان حتى اليوم الشيء الكثير من الاضطهاد في سبيل الدفاع عن أفكارهم العلمية ، يكفي أن نذكر غاليله الذي اكتشف دوران الأرض فغضبت عليه الكنيسة وأعدمته ، وفضيحة العالم اوبنهايمر الذي عانى من الماكارثية . ونذكر أيضاً بالفضائح التي جرت في القرن الماضي في انكلترا من جراء منع تشريح الجثث ، فكان أن اتفق بعض الجراحين مع المجرمين القتلة لشراء جثث ضحاياهم .. الخ .

وعلى فرض أن مشكلة المال والحرية قد وجدت لها الحلول المعقولة ، فان

أمام الباحث مشكلات اخرى : إذ لم يعد في عصرنا كما كان منذ مئة عام مثلا حراً في قضاء ساعات في تأمل الطبيعة وحوادثها ، والتفكير المستمر بقضية واحدة حتى تتبلور افكاره فيجد الحل . ان العالم اليوم يعيش في دوامة الحياة العصرية القلقة ، الشيء الذي يعرقـــل تبلور أفكاره : فالهاتف أو الهواتف ترن بدون انقطاع ، والبريد متراكم على المنضدة ، والمساعدون يروحون ويجيئون، يسألون بدون انقطاع ، وزيارات الزملاء ، والتلامذة والصحافيين لايستطيع أي عالم في الدنيا أن يتخلص منها . وهو ان لجأ الى المكتبة يصادف فيها الكثيرين من الزملاء والمعارف ، والزوار . وفي المخبر أو المكتب أو الجامعـــة : الأمكنة ضيقة والضجة كثيرة تأتي من كل طرف ... الخ .

يقول باستور « من شروط العمل العلمي الجيد : الصمت والسلام » وهكذا فقد وجدت بعض الدول أنه من الضروري اعطاء فرصة للعلماء للتفكير بهدوء فتمنحهم كل سبعة أعوام عاماً كاملاً من الراحة يفعلون مايشاؤون ويصرفون ما يريدون من المال .

قلنا أن البحث العلمي أصبح جماعياً . ومن هنا جاءت أهمية ايجاد مساعدين أكفاء للعلماء . إذ أن الأعمال العلمية متشعبة وتتطلب مسؤولية تقنية ومالية بالاضافة الى المسؤولية العلمية الصرفة . كان العالم قديماً يكتفي بساعد واحد بسيط . أما اليوم فان هـذا الأمر يبدو مستحيلاً . فمن الذي عليه أن يراقب وينظم أعمال العديد من الآلات الدقيقة ، ثم يقرأ الجداول والمنحنيات ويصنفها ويترجمـــا ويعد التقارير عنها ؟ من الذي يجب عليه أن يقرأ آلاف النشرات العلمية ويختصرها ويصنفها ؟ من الذي يقوم بالمحاسبة واستقبال الزوار ويطرد الفضوليين أو الجواسيس ؟ من الذي عليه أن يراقب الضرب على الآلة الكاتبة

ويصحح الأخطاء ، وينظم المقالات والدراسات ويعمل على نشرها ! كل هذه الأعمال وغيرها تتطلب عدداً ضخماً من المساعدين الفنيين وعددهم قليل غير كاف حتى في البلاد المتقدمة .

ولقد عمدت بعض الدول ، ومنها الولايات المتحدة ، الى استعمال العقل الالكتروني للاستعاضة عن المساعدين ! الا أن هذا الجهاز معقد ويجب أن يراقبه « مساعدون » ليس من السهل الحصول عليهم .

لذا نرى في البلاد المتقدمة الى جانب الدراسات العليا اهتماماً كبيراً بالدراسات التقنية الوسطية ، والمقصود بذلك أنه الى جانب الطبيب البحاثة ، يوجد عدد كبير من التقنيين الأخصائيين بالمخابر، والأجهزة المختلفة : كالأشعة بمختلف أشكالها والمخططات وهكذا فان البحث العلمي ، كما يقال ، يبحث عن بحاثة !؟.



ولقد اهتمت الجامعة في قطرنا في هذا الأمر فانشأت مدارس من هذا النوع ولكن عددها قليل ويجب الاهتمام بها بشكل أوسع وأكبر .

من البديهي أن تبادل المعلومات العلمية بين مختلف علماء الأرض ، عامل هام في تقدم العلوم . إلا أن المنشورات أصبحت في نهاية الأمر مشكلة عويصة الحل . لأنها في ازدياد مستمر . ويقدر عدد المنشورات العلمية في العالم اليوم بحوالي ( ٣٦٠٠٠ ) مجلة علمية ، وعدد لايحصى من الكتب والتقارير والاحصائيات .

والعدد في ازدياد هائل . ففي عام ١٩١٠ مثلاً كان عدد المقالات المنشورة في العالم عن الكيمياء (١٣٠٠٠) مقال .

ولكنه وصل عام ١٩٥٠ الى (٤٧٠٠٠) . ولقد قام البعض بحساب الوقت اللازم للكيميائي لقراءة مانشر عن عام ١٩٥٣ عن الكيمياء فوجدوا أنه يلزم أن يقرأ طيلة ثماني ساعات يومياً وخلال عام كامل .

لذا كان من المستحيل على العالم الاضطلاع على كل ماينشر في العالم ضمن اختصاصه . ما العمل اذن ، لكي يستطيع العالم أن يعرف مثلاً ، فيما اذا كان البحث الذي يقوم به قد وجد له حل في دولة أخرى ؟ أو أنه يوجد علماء آخرون يقومون بالعمل نفسه ؟! وكيف السبيل الى ايجاد الكتاب أو المقالة التي تجيب على الاسئلة التي تدور في ذهن العالم من بين هذه الأكداس المكدسة من الكتب والمنشورات .

قام البعض من أجل حل هذه المشكلة ، بنشر مجلة تحتوي على تقارير مختصرة عن كل بحث . وينشر هذا في مجلة اختصاصية ، أو في دليل شهري أبجدي عن كل ماينشر في العالم من بحوث .

ولكن هذه القوائم ، أو المختصرات لاتستطيع أن تفي بالغرض تماماً اذ قد يكون مايهم العالم هو جملة أو جملتان من كل المقال . بالاضافة الى أن الفترة الزمنية التي تمر مابين وصول العالم الى اكتشافه ولحظة نشره قد تقصر أو تطول . ويبدو أن أقل زمن بالنسبة للمقال هو سنة أشهر وسنتان أو ثلاث بالنسبة للكتاب .

لذا يفكر البعض في استعمال طرائق الصحافة اليومية الحديثة التي تحول الكلام العادي مباشرة الى مقالات مرصوصة في صفحات منسقة .

أما المكتبات . فهي من الأسس الهامة لكل جامعة ومركز بحث .

فيجب أن يكثر عددها وتنوعها وتنظيمها فتحتوي على كل ماينشر بشكل منظم وأن تكون فيها عدة نسخ من كل كتاب هام ، وأن تكون تحت الطلب دوماً وفي معظم أوقات النهار . إلاّ أن هذا يكلف مبالغ طائلة ويتطلب اخصائيين في المكتبات،وما أندرهم .

وللمنشورات والمكتبات مشكلة أخرى هي : اللغة . فلقد كان العالم الأوروبي يعتبر نفسه قادراً على تتبع كل النشرات اذا كان يتقن الفرنسية والانكليزية والألمانية . ولكنه اليوم يجد نفسه مضطراً الى تعلم الروسية وهي لغة صعبة ومعقدة ... بل ربما اضطر في وقت قريب الى دراسة الصينية واليابانية . ولقد عمدت بعض المجلات العلمية مهما كانت لغتها الأم ، أن تلحق بكل مقال مختصراً بالفرنسية ، والانكليزية ، ليستطيع كل عالم أن يقرأ المختصر فان وجد ماهمه فيه اعطاه لمن يترجمه كلية . ودور المترجمين في عصرنا كبير ، ولقد أصبح من الضروري ايجاد مترجمين اخصائيين بمعنى أن للمترجم اضطلاعاً واسعاً وجيداً على العلم الذي يترجم له علاوة على معرفته الممتازة في اللغة العلمية التي ينقل اليها وعنها .

إلاّ أن المنشورات لوحدها لاتكفي لتأمين الصلة الفكرية بين علماء العالم إذ توجد دراسات علمية عملية لايمكن فهمها إلاّ اذا رؤيت مباشرة ، وتوجد لدى العلماء أحياناً أفكار وليدة غير مبلورة وغير منشورة .. لذا كان الاتصال الشخصي ضرورياً جداً . ولقد عمدت المؤسسات العلمية الكبرى الوطنية أو الدولية الى منح بعثات عديدة في سبيل هذه الغاية ، والى تشجيع المؤتمرات الدولية . ولكن الكثير من هذه المؤتمرات حادت عن غايتها الأساسية واتخذت

طابعاً سياحياً ، يجتمع خلالها مئات الأخصائيين يقدم كل منهم وخلال بضع دقائق بحثاً قصيراً في جو بعيد عن الجو العلمي الرصين الجدي .

لذا تتجه الجهود حالياً الى تأمين اجتماعات علمية بين بضعة علماء لتبادل الآراء ووجهات النظر في جو هادىء نسبياً ومقتصر على الهام من المسائل .

بل ان هذا النوع من الاجتماعات ( Séminaires ) انتقل الى وسائل التعليم إذ يعطي الاستاذ موضوعاً لأحد الطلاب لتحضيره ثم يدرس خلال ذلك الاجتماع بين الأستاذ ومساعديه وتلامذته . وهذا مايسمح بتدريب الطلاب على البحث العلمي .

ولا بدّ من التنويه بأن من واجبات العالم الباحث تخصيص بعض الوقت لنشر نتائج بحوثه على الجمهور الواسع ، بشكل سهل وميسر عبر وسائل الاعلام كالصحافة والاذاعة والتلفزيون ، وذلك كي لايدع مجالاً لتجار الأخبار من الصحفيين الذين يهولون ويبالغون ويشوهون وجه العلم الصحيح .



الخلاصة :

لم يعد خافياً على أحد ما للعلم من أهمية كبرى في تقدم الأمم كذلك فان الوجه الحقيقي للعلم ليس في عدد الجامعات أو الطلاب بل في مستوى البحث العلمي فيها .

ولقد أدرك العدو في فلسطين المحتلة هذا الأمر منذ البداية فاستطاع أن يؤمن ( ١١٢٥ ) باحثاً علمياً [١] ، وطبيباً لكل ( ٤٠٠ ) مواطن منهم ( ٧٠٠ ) .

---

(١) في أميركا الجنوبية كلها ( ١٠٣٩ ) باحثاً وفي أفريقيا ( ٧٣١ ) منهم ( ٢٩٣ ) في مصر .

يقومون بالبحوث العلمية الطبية و (٦٠٠) في ميدان العلوم البيولوجية ، كما أنه نظم خلال فترة سنتين من ( ١٩٦٦ حتى ١٩٦٨ ) ٧٢ مؤتمراً علمياً منها ١٢ طبي أي بمعدل مؤتمر كل خمسة عشر يوماً تقريباً .

أما في قطرنا فلقد ازداد عدد الكليات والجامعات وعدد الطلاب ازدياداً محسوساً ومضطرداً منذ الاستقلال حتى يومنا هذا . إلا أن البحث العلمي ظل غير منظم وتابع لحماسة بعض الأفراد. وبدهي أن العمل الفردي مهما كان فهو أولا يخبو مع الأيام والصعاب والصدمات ، وثانياً : ليس بذي مردود .

واقتصرت البحوث في قطرنا على بعض المقالات في قليل من المجلات العلمية وأغلب هذه المقالات يعتمد على الترجمة وقلّ أن توجد فيها دراسات واحصائيات كبيرة ودقيقة وأصلية .

كذلك فان دور المجلس الأعلى للعلوم مقتصراً على اصدار التوصيات والاشراف على اسبوع العلم .

لذا كان من الضروري ، في رأيي ، انشاء وزارة للبحث العلمي ، أو مديرية تابعة لوزارة التعليم العالي ، ترصد لها ميزانية خاصة علاوة على نسبة مئوية تقتطع من موازنة كل وزارة . وتطرح المشكلات العلمية على هذه الوزارة وهي بدورها تؤمن البحث العلمي اللازم للأجابة عليها .

وبالطبع فان ذلك يتطلب انشاء مخابر ، ومدارس تقنية واستقطاب عدد كبير من الباحثين . وأجد من الضروري هنا التنويه بالاهتمام الجدي والعلمي لمشكلة هجرة الأدمغة التي من أهم أسبابها ، في رأيي ، فقدان المناخ العلمي في بلادنا .

فاذا ما استطعنا تحقيق ذلك ومرنا في هذا الميدان زمناً طويلاً وقطعنا شوطاً بعيداً ، أمكننا عندئذ وآنئذ فقط أن نلحق بالركب العالمي المتقدم ،وان نتخلص الى الأبد من وصمة التخلف .

# تقنية الرواية

## عند نجيب محفوظ

بقلم المستشرق اندريه ميكل

André Miquel (١)

ترجمة : فهد عكام



لاتدعي الخواطر التي تقرؤونها استنفاد جوانب البحث في نطاق النتاج الروائي لنجيب محفوظ ، فهي خلافاً لذلك تغض الطرف عن كل مايتعلق بعلم الاجتماع وعلم الأسلوب المحض . ولن تجدوا هنا أي شأن للنماذج الانسانيـــة ،

(١) الأستاذ أندريه ميكل من خيرة مثقفي فرنسا ، فهو خريج مدرسة ما فتئت منذ عهد بعيد تغذي فرنسا بكبار مفكريها في الفلسفة والسياسة والآداب . . . وهي دار المعلمين العليا ؛ وألقابه العلمية متعددة يتوجها لقب دكتور في الأدب ، وهو استاذ محاضر في جامعة باريز الثالثـــة . وله أبحاث هامة في الأدب الجغرافي لدى العرب ، وفي الأدب المقارن ، وفي علم اللغة ، وفي أدب القصة ... وهو بحكم ثقافته الموسوعية واتصاله بتيارات الفكر المعاصر من أقدر المستشرقين على فهم أدبنا العربي وتقييمه ، والبحث الذي نترجمه له مما يشهد بثاقب نظره وحسن تعاطفه مع قضايانا العربية الراهنة .

ولا للاتجاهات السياسية ، ولا لفن النثر أو طبيعة اللغة المستخدمة . ان مقصدنا توضيح سمات النتاج الفني لنجيب محفوظ من حيث تقنيته الروائية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . فبهذا التحليل لاسواه يبدو لنا أننا نستطيع بذل الجهد لنضع هذا النتاج في الاطر الواسعة لتاريخ الرواية العربية أو لتاريخ الرواية عامة . ومع ذلك فلن ننسى أن مانستطيع تقديمه من احكام عن الروايات الثمانية المفحوصة هنا [1] يظل الى حد كبير خاضعاً لاعادة النظر ، سواء كان ذلك من حيث طريقتنا التعسفية في تقييمنا لهذه الروايات تقييماً ذاتياً ، أو من حيث الترتيب الزمني الذي هو أشد صرامة ، والذي مايزال ينتظر روايات أخرى من عبقرية هذا الكاتب[2] .

لايسعنا لدى قراءة مؤلفات نجيب محفوظ إلا أن ندهش من احساسنا الرائع بوجود وحدة تضع في المقام الثاني النظرة التي تنظر الى تطور التقنية الروائية في انتاجه بأكمله على أساس تاريخي . ففي الحقيقة إن نجيب محفوظ كتب حتى عام ١٩٤٦ ، أبحاثاً[3] وأقاصيص[4] أو روايات تاريخية[5] ، وخان الخليلي ، اولى



(١) سواء كانت : خان الخليلي ( وهي مسماة باسم حارة في القاهرة القديمة ) ، أو زقاق المدق ، أو بداية ونهاية ، أو الثلاثية ( المؤلفة من ثلاث روايات اقتبست عناوينها من مواضع في حي سيدنا الحسين القديم : بين القصرين ، قصر الشوق ، والسكرية ) ، أو اللص والكلاب ، أو السمان والخريف . ينقص هذا الجرد : السراب ، التي لم نستطع الحصول عليها ، وفضيحة في القاهرة ، وقد لفتني اليها السيد ش. فيال Ch. Vial ، ولا توجد في قائمة نجيب محفوظ التي قدمها لنا الطابعون . أنظر جدولاً ( في آخر البحث ) بالطبعات المختلفة لهذه الروايات .

(٢) أعلن عنها حين كنت هذه الأسطر وهي دنيا الله ، وهو مجموعة قصص .

(٣) مصر القديمة ( ١٩٣٢ ، ترجمة عن الانكليزية ) والقاهرة الجديدة ( ١٩٥٨ — ١٩٦٢ ) ، ويتحدث عن القاهرة ومصر القديمتين والجديدتين .

(٤) مؤلف عنوانه : همس الجنون ( ١٩٣٨ ) .

(٥) عبث الأقدار ( ١٩٣٩ ) ، رادوبيس ( ١٩٤٣ ) ، كفاح طيبة ( ١٩٤٤ ) .

الروايات الكبيرة ، أعني التي تجعل من نجيب محفوظ من الآن فصاعداً روائياً اتباعياً un Classiqne du roman [1] ، وهي تشتمل على بعض سمات الضعف[2] ولكن مزايا المؤلفات اللاحقة كلها ظاهرة فيها ، والرواية التالية ، زقاق المدق ، تؤكد هذه المزايا تأكيداً نهائياً[3] . وإذا فكرنا ، من جهة أخرى أن نجيب محفوظ لم ينشر رواية ما من سنة ١٩٥٠ – ١٩٥٥ ومن سنة ١٩٥٨ – ١٩٦١، فاننا نرى أن الخلق الأدبي عنده يتجمع في سبعة أعوام تقريباً،وهي نفسهامقسمة الى ثلاث زمر : من سنة ١٩٤٦ الى ١٩٤٩ ، ومن ١٩٥٦ الى ١٩٥٧ ، وسنة ٩٦٢ ، وفضلا عن ذلك ان السنتين الاخيرتين تشهدان بنشاط فعال في سير ابتكاره . تجمع نتاج نجيب محفوظ هذا ، في نوع من الترتيب الزمني ، هو في الأرجح أحسن ضمانة لوحدته والسنوات، التي ظهرت فيها الثلاثية تظهر في الحقيقة بمظهر الوسيط الذي يفصل بين عهدين روائيين منفصلين صفحات الرواية في كل

---

(١) انظر مونتي V Monteil ، مجموعة مختارات اللغة من الأدب العربي المعاصر. Anthologie bilingue de la litterature arabe Contemporaine ،بيروت ، ١٩٦١ صفحة ٢٠٥ . وج. جوميه J Jumier ( تحليـل الثلاثية في كتاب منتوعات المعهد الدومنيكي للدراسات الشرقيـة : - Jes Milainges de el Institut domincain d' Etudes orientale ، الجزء الخامس ، القاهرة ١٩٥٧ ) .

(٢) انظر بخاصة ذكرى غزو القاهرة وقصفها بالقنابل المعروضة بما فيه الكفاية من التكلف : الطبعة الخامسة ، ١٩٦٢ ، صفحة ٢٩ .

(٣) زميلي وصديقي ش. فيال Ch . Vial، الذي يهتم اهتماماً كبيراً بهذا الأدب يعتبر هذه الرواية واحدة من أفضل ما أنتجه نجيب محفوظ من روايات معروفة في هذا اليوم ، إن لم يكن ذلك على صعيد المزايا الروائية حقاً ، فعلى الأقل لجرأة الموضوعات المعالجة ومزية التحليل النفسي .

منها أقل مما هي عليه في الثلاثية (١) ، وسيط حاسم ، كما يقال ، وبخاصة على صعيد مفهوم الزمن الروائي(٢) وربما ، إذا ماخرجنا عن مقصدنا ، على صعيد اللغــة والاسلوب (٣) . على اني لست متأكداً من ذلك كل التأكد . وفي رأيي ، ان المقصود بهذا التجمع الزمني نوع من التباين يظل على الرغم من كل شيء سطحياً ، ولا يضع ، إذا تجاوزنا مظهر المدة الزمنية la durée البسيط الصفات الثابتة العميقة التي تختص بمعالجة الزمن الروائي نفسها موضع المناقشة ، كما سنرى ذلك فيمابعد .

* * *

يبقى ان نتاج نجيب محفوظ انما يستمد أصالته العظيمة ، بالدرجة الاولى من الاطار الروائي Cadre romanesque وهذا الاطار ، انما هو الحارة ، وبتعبير أدق ، هو ماخلا بعض الشواذ "من" يعيش من الناس في ظل سيدنا الحسين ، في متاهة الأزقة من مثل خان الخليلي أو زقاق المدق ، وهما يتران من الظـــلام ينفتحان أحياناً على الجو الحر في الجادات الكبيرة : السكة الجديدة او الصناديقية . وانطلاق بعض الشخصيات الى أحياء مجاورة مع ذلك هي قصر الشوق او هي السكرية ، يظهر مربعاً في هذه الاحياء على الصعيدين الجغرافي والعـــاطفي ،



(١) زقاق المدق ، حتى مع صفحاتها البالغة ٣٦٦ صفحة ، وبداية ونهاية البالغة ٣٨٢ صفحة تأتيان بعيداً خلف الثلاثية المكوّنة من ١٢٠٠ صفحة . ومع ذلك فإننا نسجل أن كل واحد من مجلدات الثلاثية هو إلى حد كبير ، من طراز الروايتين السابقي الذكر . والاختلاف بينه وبين روايات الفترة الثالثة : اللص والكلاب (١٧٥) صفحة، والسمان والخريف (١٨٩ ) صفحة أكثر وضوحاً .

(٢) نجيب محفوظ يهتم بهــذا اهتماماً أساسياً : انظر مونتي Monteil ، المصدر المذكور سابقاً .

(٣) نعلم ان طه حسين أشاد بظهور الثلاثية من حيث أنها الرواية المعاصرة الأولى التي كتبت آخر الأمر بلغة حديثة وبسيطة بقدر ما هي ابداعية .

بظهر النفي الذي قلما قطع بمناسبة الزيارات . ومدينة القاهرة الواسعة ، اذا نظر اليها من شاهق نظرة طائر محوّم تبدو مقسمة الى سلسلة من الاقاليم تنقسم بصرامة إلى اقسام صغيرة تتميز بخاصة الحسد : إذ بجانب سيدنا الحسين ، هناك شبرا [1] والدقي [2] وسواها من الاحياء التي تحيا حياة خاصة بها ، وهذه الاماكن التي تتوزع بينها حياة هذه القاهرة المتعددة الاشكال [3] لا تكاد تذكر إلا لماما .

حتى اذا ما توطدت هذه المقاطعة ، حدثت ثنية اخرى في البعيد خلف حدودها النظرية ، ونكتشف في داخل الدائرة الاولى ، ودوائر أخرى تحجب حياة قاسية . وذلك لأن هذه الدوائر خططت بخاصة من حول شخصيـــة هي مركزها الجامد كل الجمود ولا تبدو ، في إطار الرواية الا هنا وهي : معلم في مقهاه ، وتاجر في دكانه ، وشحاذ في زاوية شارع . وهكذا فالحياة التي تتوجه ابتداء من حدود القاهرة الكبيرة في البعيد إلى حي عناز ، تتبعثر في ظل هذا الحي في سلسلة من الميادين الثانوية ، والثلاثية تقدم عن ذلك أمثلة دقيقة لا تختلف في براعتها عن هذه النافذة العمودية التي تستخدمها فتيات المنزل لترصد الحارة بعيونهن الساحرات ، وعن هذه المصلبة القائمة في نهاية الشارع ، حيث يحلم الشاب وهو عائد الى بيته ، وحيث — رمزياً اذ هنا ينتهي هدوء الجنة المغلقة وأنها سيوقف الولد الصغير ذات يوم على يد الجنود الانكليز .

والحق ان الجنة الوحيدة ، وهي المركز العصبي في الرواية ، إنما هي المنزل : فالوسط الأسروي يبزّ من حيث الاستقرار كل الاوساط الأخرى ،

---

(١) بداية ونهاية .

(٢) السمان والخريف .

(٣) ليست هذه مدينة بل هي بلد ( مغري الرابع بمناسبة باريز ) .

لأن الأم(1) في الأسرة أقل حركة من جميع الشخصيات التي تدور الرواية حولها. ومع ذلك فهنا أيضاً ، من حول الغرفة المركزية التي تجتمع فيها الأسرة في لحظات مختلفة من النهار تجري حركة التبعثر اللاحقة نفسها : نحو غرفة الاب أولا ، حيث تؤخذ القرارات الهامة ، ولكن أيضاً نحو الباحة ، ونحو الدرج(2) ، ونحو السطوح أخيراً حيث يبحث عن كلمات الحب وحركاته في ظل أكنان الطيور .

قد نتوقع بتقنية تعويضية مشهورة فيضاً من الوصف (3) للنقطة التي اقتيد إليها منهجياً هذا التقليص لعالم الرواية الحيّزي ، ولكن شيئاً من من ذلك لم يحدث ، فأهم ميزة لإطار نجيب محفوظ ، إنما هي رزانته ، إن لم نقل صرامته (4) . فالمؤلف ليس كاتباً بلزاكيا ، تتوقف عينه على أثاث أو بناء لتكتشف سراً ما لمالكه أو مهندسه . وإنما هو فيما يبدو يقلص المدن والبيوت والأشياء إلى ملامح أساسية تلخصها تلخيصا . حقاً إنها لتبدو متذكرة أكثر مما هي موصوفة . ومثال على ذلك من بين كثير من الأمثلة ألوان الضجيج في المدينة . فأنا أعلم الثروة العظيمة لهذه السلسلة من الأصوات المنطلقة إن في الليل أو في النهار ، لبقائي مدة أربعة أشهر في حي من هذه الأحياء الشعبية في القاهرة في مكان مايقع إلى الجنوب الغربي من سيدنا الحسين ، في مسكن وجدتني فيه وتجد جذبت أذني أكثر من عيني . وعليه فليس لدى نجيب محفوظ أي وصف لهذه الحياة ،

---

(1) إنما هي التي تمنح الثلاثية وحدتها الشكلية ( وأيضاً بداية ونهاية وإن يكن ذلك في درجة أمثل ) .

(2) في البنايات الشعبية الكبيرة في «خان الخليلي» أو «بداية ونهاية» .

(3) كما هو الحال في البلث ذات العينين الذهبيتين .

(4) إننا لنرثي جداً لحال صور الغلاف المبالغ فيها ، والتي لا تجدر بمؤلف هذه صفته .

يوجد لديه بعض الملاحظات البسيطة ، بعض النقاط الروائية المسروقة في غير قصد ، ولكن مما لاشك فيه أنه ليس هنالك هذه السمفونية التي أنشأها بروست Prouste لتصوير ضروب الضجيج في باريز (١) . وسنرى سبباً قاهراً لهذا التعري العام ، ولاسيما على صعيد المسكن الأهلي : ذلك أن كل شيء في هذا المسكن فقير مثل الناس ، في هذا العالم الذي تتكرر فيه الكلمات الجاهزة مطلقة على الكراسي الضئيلة العدد والحصائر أو الصناديق مما يكفي لرسم إطار لحياة الفاقة والعوز ، لايتغير نمطه . على أن هنالك أكثر من مجرد إرادة الكمال بالحرص على الحقيقة : هنالك ، رفض مستمر الرضى عن الإطار . ففي «اللص والكلاب» على سبيل المثال يغدو العري منهجاً ويكاد الطابع المحلي لايتحدد إلا بملاحظات كملاحظات برشت Brecht هي من الإيجاز بحيث يمكن أن تشبه ، في نهج الرواية بعلامات طوبوغرافية تهبط من أعالي المشهد في نسيج واسع لتذكر المشاهد أنه ينبغي ألا ينوء بخطر افتتانه بالأشياء . وقصارى القول وحتى بدون الوصول إلى التهييج الموجود في اللص ، إنه يوجد شيء قليل من ذلك لدى نجيب محفوظ يتمثل في رفضه ، على كل حال ، أن يجد في قبح الإطار أو هويته داعياً للسحر ، وهذه وضعية لاتتفق في شيء مع وضعية الزائر الغريب المتعارف عليه ، هذا الزائر الذي قضي عليه بأن يجد الشيء الرائع في جميع الأشياء ، خارج بيته ، وحتى في الشقاء . ومن هذه الوجهة إن رسم بعض أجزاء الإطار قد لايكون بعد كل شيء سوى المعالجة الروائية لشكل من الاحتجاج الاجتماعي ، الذي عبر عنه بوضوح (٢) في موطن آخر ،

(١) مثال آخر ، في ترتيب الرواية : أقل من صفحة لتقديم زقاق المدق بمجموعه وننتقل حالاً إلى داخل الدكاكين .

(٢) على سبيل المثال في حمار الحكيم ، لتوفيق الحكيم .

والذي قد يغدو مع « اللص » تمرداً عنيفاً ينبعث من نزوع إنساني كامل » يكون صارماً ويعتبر الشيء L'objet نوعاً من الخداع ، ويفتش عن لباب العواطف الإنسانية خارج الإطار الذي يشوه هذا اللباب (١) .

إن نتاج نجيب محفوظ ، حين لا يصل إلى هذا الحد من الشك التام من حيث إطاره ، يظل بالنسبة إليه موضوعياً إلى حد بعيد على الأقل . وإننا ندرك كل الإدراك حينئذ السبب العميق لما أشرنا إليه من صرامة ، وتعرية متوالية . والشخصيات نفسها بادىء ذي بدىء ، تسهم في الموقف العادل الذي يقفه الكاتب إزاء المحيط المادي : فهي تعلم كل العلم أن مغزاه الحقيقي ، هذا المغزى يستطيع به أن يسهم في تكوينها كأناسي الايتعلق بطراز الجمال الشكلي ، بل بطراز القيم الخلقية : كالشجاعة اليومية أو الورع (٢) ... هذا المبدأ الحامل بالعودة إلى الينابيع ، ووعي القيم الأساسية المختفية خلف الأمكنة المتواضعة تعالج هنا أيضاً بطرق خاصة بالرواية : وبالدرجة الأولى ، وخلافاً لكاتب القصة الذي يكتنف هذا المبدأ ويعرضه في شكل forme (١) . ان نجيب محفوظ ينشره في تضاعيف روايته كلها ، ويحوله على هذا المنوال إلى عنصر روائي بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، وفي شكل إقليمية قائمة على الفضيلة ليست مادة مبدأ أساسي عبر عنها بكلام واضح ، بل هي معتقد عميق فطري جازم . ومن ثم فإن الأبطال المتفرقين في العالم الخارجي للقاهرة بسبب نشاطاتهم المهنية أو المدرسية ،



---

(١) تفتح شخصية ما ذات قيمة في وسط يحزم فيه بجرأة، على سبيل المثال بفضل الذكاء ، والعقل ، والإنسانية العميقة ( فهمي في بين القصرين ) . هــذا التفتح إنما هو منهجي لدى نجيب محفوظ .

(٢) ورع الأم في الثلاثية،شجاعة حسين في بداية ونهاية ، أو عباس في زقاق المدق.

(٣) انظر أقصوصة يحيى حقي الجميلة جداً وهي:قنديل أم هاشم ، القاهرة ١٩٥٤

إنما يعودون إلى قلب الوسط الذي يعيشون فيه لينالوا حظاً من قدرهم الحقيقي. والثلاثية [1]، من هذه الوجهة، رائعة من الروائع. فههنا دون روايات نجيب محفوظ كلها إنما يلعب السياق التاريخي دوراً، أكان مصرياً أم عالمياً. على أن هذه الحوادث، ماخلا بعض الأمثلة النادرة [2]، سجلت ابتداءاً من عالم الحي أو عالم الأسرة الصغير، هذين العالمين اللذين لا يصل ضجيج الخارج إلى صميمها إلا معرى مقلصا. وحينئذ، إن الشقة الواسعة التي تفصل سلفاً السلطة الهنارية عن المشاغل اليومية لعمال القاهرة وبورجوازييها المتواضعين تبرز في هذا العالم بروزاً كبيراً، إذ من حول هذه القضايا الأساسية التي تسمى شقاء، وتقدماً، وسعادة تحدث الجابهة الحقيقية، معراة من شعارات السياسة والتعظيم، بفصل الحس السليم لدى البسطاء. ومن هذه الزاوية سنأخذ بعين الاعتبار هذه الحادثات السرية وبالتالي الصادقة بين التقليد والتحديث [3] وكأنها محادثات أساسية يعترف فيها التقليد أمام التحديث بتقصيره في بلوغ النجاح، ويعترف الآخر بتقصيره في إدراك الحكمة.



ومع ذلك فإن أبطال نجيب محفوظ لا يكتفون بالعودة بوسطهم إلى فضائله الأساسية، إنهم يحذفون من حياتهم بجلاء تام كل ماهو قبيح في هذا الوسط. والانسلال شعرياً كان أو عنيفاً، نحو وسط في الخارج نظيف ومتأنق هو نتيجة طبيعية لهذا الرفض. والطريقة منهجية لدى نجيب محفوظ، فالسيارات

---

(1) ولكن أيضاً، بدرجة أقل، السمان والخريف، خان الخليلي، زقاق المدق.

(2) الاعدام بإطلاق الرصاص حيث صرع فهمي (بين القصرين) هو أكثر الاستثناءات جدارة بالتسجيل.

(3) نموذجها التام يتمثل في الحادثة بين فهمي وأمه.

وحافلات الترام ، القطارات[1] في النادر ، تحمل الأحلام نحو المدينة الكبيرة أو مصر السفلى البعيدة ،ومع ذلك فالشخصيات تبحث في ذاتها عن ملجأ تفر إليه ، أكثر مماتبحث عنه بهذه الوسائل التي يرتبط بها الحي مع الحياةالمحيطة به ، وتضفي محتوى رمزياً على المكان أو المحيط الذي ليس هو المكان الذي تعيش فيه عادة ، مغدقة عليه ماتحلم به من : حب ومجد وثروة ... فالسطوح التي تستر بها منازل القاهرة القديمة السماء والجمال دفعة واحدة مجرد مكان للعبور ، آني كالشفق المثار الذي يخفف من حلكة الظلام في إطار زقاقي كما قيل[2] . وفي موطن آخر ، في شبرا إنما يفتش عن الهواء العليل في منزل مجاور، في واحـــدة من بنايات البكوات ، ذات الحدائق المغلقة ، التي تتجول فيها الفتيات على دراجاتهن ، واللائي ينسين ، وهن في غمرة اللعب ، أن من الممكن أن يكن مراقبات[3] .

* * *

وعلى هذا المنوال ، فان الشخصيات الروائية تتحـــدد ، على الرغم من المظاهر[4] ، ببعدها عن الاطار ، الذي لاتربطها به علاقة طيبة ، ولا منهجيةتقوم على التحكم او الصراع ، بل تربطها به علاقة لاتختلف في شيء عن العلاقـة بين القاضي والمحكوم عليه . فهي لاتندمج مع الوسط ولاتعارضه حسبما يقتضيهالحال

(١) بالنسبة إلى عباس في زقاق المدق ، وحسين في «بداية ونهاية» .

(٢) بين القصرين تقدم عن هذه اللقاءات ذكريات عجيبة .

(٣) بداية ونهاية .

(٤) طبعاً ليس المقصود شخصيات من الدرجة الثانية ، تكون جزءاً يندمج بالإطار ؛ فضلاً عن ذلك، إن الملاحظة نفسها صالحة لبعض الشخصيات المركزيةالأساسية من حيث المحل الذي تشغله، ولكنها ليست كذلك من حيث نمو العقدة، وإذن فهي أيضاً عناصر من الإطار ، وضعت لتكون دالة ( مشكلة الام في الثلاثية ) .

الا بفضل موقف تفرضه هذه الشخصيات على نفسها، غير متأثرة بأي تأثير خارجي. وفي هذا المعنى ان التأثير الحاسم تأثير الشارع البائس على إرادة القوة لدى اصغر الاخوة الثلاثة في «بداية ونهاية»[1] جلي دائماً في ضروب من النجوى طويلة ، يتعادل فيها ما لهذا التأثير وما عليه . وهذه الطريقة التي تجعل للعقل جانباً من العرض الروائي، بدون ان تفسد في شيء طابع الرواية ، تلفت الانتباه الى المدى الخلقي، وتوسع حقل انتشاره[2] .

وفضلا عن ذلك ، فان الابطال لا يخضعون كل الخضوع لمزاج المؤلف : فأسلوب السرد الذاتي الذي ينعم كتب توفيق الحكيم أو يحيى حقي كثيراً من الحلاوة غائب عن روايات نجيب محفوظ . إننا نعلم حقاً أن طوبوغرافية الثلاثية وعواطف الابطال الشباب مستقاة من ذكريات الكاتب في طفولته وشبابه . ولكن توخي الصفة النموذجية يرد إلى هذه الذكر البعد الحقيقي شعبياً كان او ملحمياً : لأن الشخصيات المركزية في وجه من الوجوه شريفة حسنة السيرة ، ملحمية اكثر بما هي روائية : إذ ميلها هذا الى تجسيد شعب – وهذه صفة سامية للبطل الملحمي – وقدرتها هذه على التحكم بالحوادث ، تحكم عليها دائماً ، وتصفها حيناً ، وتخضع لها نادراً[3] . وهذا السلوك الذي يسود الرواية ، ويتوج كل شيء آخر الأمر ، وهذه العزلة – وهي حدث ذو معنى : فأعضاء مجموعة متحدة

---

(١) وعلى ضياع الأكبر البكر وأخته أيضاً .

(٢) لا تنس أيضاً نظراتها الاجتماعية ، رغبتها في أن تكون في متناول الجميع .

(٣) الانتحار النهائي في «بداية ونهاية» المفاجيء جداً ، لا يفهم الا على أنه عمل أول حر لشخصية أمسكتها الظروف حتى الآن على الرغم من نجاحها الخارجي .

كل الاتحاد ، يجزمون كل على حدة[1] ـ هذه الصفات كلها تربط الشخصيات بأسرة الشخصيات الملحمية الكبرى أكثر مما تربطهـــا بأسرة الأبطال القلقين في الرواية .

والنماذج المادية ، التي تبتعد جداً في الملحمة عن طبيعة الناس وحقيقتهم هي كذلك هنا ، للمقتضيات ذاتها ، وهنا أزواج متخاصمون يوطدون أركانهم كما هو الحـــال في الملحمة . هنالك الفتاة الظريفة ، والفتاة ذات الجسد الكريه ، والأنف الضخم[2] ، والرجال الجيف وسواهم ، والأم المهزولة والمسنة المهيبة التي توشك أن تغدو كسيحة جاهزة[3] . والروايات في مجموعها تجري أحداثها هكذا حول بعض الصور الانسانية النادرة الجاهزة التي تتكرر باستمرار وتضيف الى صحة الملامح المخالفة للطبيعة سمـــة النعوت في وصف التفاصيـــل[4] . والمجازفة خطرة لأن التفصيلات الملحمية تنفي الفن الروائي . على أن عبقرية نجيب محفوظ تسد مسد هـــذا النقص بصفات مميزة من نوع آخر ، مقتبسة لا من الملامح الجسمانية ولا حتى من الخصائص النفسية ، بل من تنوعات هذه المسلّمة الفريدة التي تسمى الشعب المصري مع حرص الكاتب الدائم على نوع من الوحدة . وابطال الرواية يغدون على هذا المنوال الى حد ما كالعرض السينمائي ، لنموذج عام يجسده بطل ملحمي . وأصالتهم تأتيهم لا من شخصهم بل

---

(١) من ضروب الحزم الأساسية على الأقل ، أن فهمي الذي يرفع من شأن القيم السياسية ، يستسلم كل الاستسلام الى أبيه في نقاط مختلفة تهم حياته الشخصية ، ولكنه لا يستسلم اليه في التزاماته في نطاق صراعات العصر ( الثلاثية ) .

(٢) بهية ـ نفيسة في بداية ، عائشة ـ خديجة في الثلاثية الخ ...

(٣) الثلاثية على درجة الخصوص .

(٤) على سبيل المثال ، كثرة العيون « ذات العيون العسلية » .

عمايتميزون به من صفات فردية ومن موقفهم في قلب مجموع واحد يجمعهم : فالشبيبة المصرية على سبيل المثال هي في عبد المؤمن كما هي في احمد[1] ، فكل منهم يمثل ميزاتها الأساسية وبالتالي يقدمها و كأنها صورة مثالية ؛ على أن المنازع السياسية الدينية تفرّق بين الأخوين ضروباً من التفريق ؛ ومنذ هذا الحين ، تتفرق مواقفهم في الحياة الواقعية في شعاب مختلفة ، والواقع المتعدد الأشكال في الرواية ينحرف على هذا المنوال في وجهات اخرى[2] .

هؤلاء الأبطال ملحميون لأنهم يمثلون باً كلهم جماعة انسانية واحدة ، وروائيون كلما اكتسبوا ، لأنهم لايمثلون من صفات هـذه الجماعة سوى صفة واحدة ولأن الفردية تتقمصهم ، نوعاً من الفردية على الأقل يقبل المعالجة الروائية، كل من هؤلاء الأبطال يرمز الى صنف من الناس عني بتحديده بدقة ، يمنح الناطق بلسانه ميزاته الخاصة ، ويخلق ، لارتباطه بالأصناف الأخرى بآليات التطابق أو التعارض الاتباعية ، هذا العمل الروائي الذي يدرك عادة باللجوء الى استخدام النفسيات الفردية . وهنا على الأرجح وهذا ما ينبغي الإلحاح عليه ، الصفة التي تفوق غيرها من الصفات أصالة في نتاج نجيب محفوظ . أبطاله أحياء ولكنهم نموذجيون، وارتكاساتهم النفسية موجودة — وهي عمدة العمل الروائي — ولكنها ارتكاسات تنجم ، بصفة تكاد تكون آلية ، من طبيعة مجموعة صغيرة أو من المنزع الذي يمثله كل منهم في نطاقه الخاص .

والنماذج الاجتماعية ، هي طبعاً ، أهم الصفات المميزة لأنهـا إذ ترتبط

---

(١) السكرية . .

(٢) موقف الشخصيتين المتحابتين مع كونها على صلة وثيقة بما اتخذناه من مواقف عقائدية إنما هو عنصر روائي .

بالشخصيات المركزية تظل آخر الأمر محدودة جداً : هنالك أولاً التاجر ، ثم الموظف والبغي ، وهما أكثر وروداً ، وأخيراً الشخصية الأساسية : الطالب ، وهو أكثرها وروداً على الاطلاق . هذا التدرج الذي عرضنا له الآن لا يهمنا هنا على الصعيد الاجتماعي – فليس ذلك ، كما قلنا سابقاً ، في نيتنا – وإنما يهمنا على مستوى توزيع الواجبات ، في نطاق العقدة الروائية . وعليه فأقل النماذج أعباء من هذه الوجهة ، انما هو التاجر : ففي حدود معرفتي إن الثلاثية دون سواها من الروايات تقدم بشخصية الأب نموذج الشخصية المركزية الخاصة بهذه الزمرة ؛ ودوره ، وإن يكن على هذا الصعيد أهم جداً من دور الأم ، فانه ينتهي الى أن يجسد ، بالتقليد والجمود ، قوة سلبية توقف حسبما يقتضيه الحال ، مبادهات الشخصيات الأخرى ، أو تقويها بتأثير صدمة من الصدمات . والموظف اكثر تعقيداً : فمهنته تضعه في قلب القضية السياسية نفسه ، والانقلابات الخطيرة في الدولة تجعل منه رجلاً تتجاوزه الأحداث وتبعده عن محورها : وروابة «السمان» صورة نموذجية له ، يطلها الذي تتنازعه الكراهية والرقة ، وبتنازعه الخطيئة القديمة ، النبيلة غير الأمينة ، وزوجة أمينة ولكنهـا قبيحة وضيعة النسب ، وتتنازعه القاهرة الثائرة والاسكندرية النائمة ، ويتنازعه التقليد والتقدم : شخصية قليلة الوضوح لا يستمر الحديث عنها في صفحة من الصفحات ، ولكنها شخصية روائية من الطراز الأول ، تكشف في تعبير واحد لا يتغير ضروب القلق التي يعانيها فرد من الأفراد وتعانيها طبقة اجتماعية . ومع ذلك فمن خلال نماذج البغايا الثلاث تتدخل اختلافات اكثر دقة : فاذا ما كانت الفتاة ذات القلب الكبير تبدو الى حد كبير ثابتة لا أصالة فيها في رواية «السمان» ، أو «اللص» ، فإن وصف العهود الأولى بالبغاء يشتمل على كثير من الأشياء الدقيقة : فالسقوط الى الحضيض

قد يكون ناجماً عن مجرد الفقر الخلقي كما هو الحال مع حميدة في « زقاق المدق »[1]، ولكنه يظهر في الأعــم الأغلب ، وكأنه الشكل العنيف الأليم لأشد أنواع الاحتجاج الاجتماعي حدة . ومما لاشك فيه أن نفيسة في « بداية ونهاية » أجرأ بطلات نجيب محفوظ . فهي إذ تقتنع بيؤس المرأة ، وتتخذ هزواً في حقوقها الجنسية والاجتماعية ،تذهب الى أقصى مدى مضفية على موقفها السلاح الوحيد الذي يتيح لها أن تنهض بأعباء نفسها ألا وهو : الكتمان . وفي الوقت الذي ينكشف فيه السر فان المجتمع ، بصوت اخيها يرد بها موارد الهلاك ، وينجم عن ذلك أنها في الوقت الذي تلفظ فيه أنفاسها الأخيرة وتصمت صمتاً أبدياً تنتصر على وجه التحديد ، وتستطيع بموت أخيها إدانة هذا المجتمع مجتمع الذكور والاقطاع . ومع ذلك نرى شخصية نفيسة تظل حالة فريدة لايمكن تجاوزها . والشخصية المفضلة شخصية الطالب لاتقوم بدور الاحتجاج هذا . فهو يمكن أن يكون شخصية مميزة[2] ، مزايا شبابها ، من ضروب التمرد الى ضروب القلق ، محركات أساسية للعمل الروائي ، على أن هذه الشخصية تختفي أيضاً ، بصفة أدق واكثر مهارة ، في شخصيات تتصل بطبقات اجتماعية اخرى ، سواء كان ذلك عن طريق ذكرى الطالب التي كان عليها[3] ، ذكرى الطالب التي وجب ألا يتصف بها[4] ، أوحتى في أقصى حد ، عن طريق اللوم العنيف الذي توجهه الى أبيها والى المجتمع هذه

---

(١) على ألا يغيب الاحتجاج الاجتماعي أيضاً ، فالميل الى العبث والاستهتار يظل العنصر الحاسم .

(٢) فهي في « بين القصرين » أكثر نماذجه وضوحاً .

(٣) « خان الخليلي » « اللص » .

(٤) حسين في « بداية » .

الشخصيات التي لم تتعلم قط[1] . وبذلك تبدو الضرورة الأساسية ، ضرورة الثقافة ، غاية يتوجه اليها نجيب محفوظ في نتاجه بأكمله .

وهكذا ، فان النتاج الروائي يحمل بالضرورة درساً من الدروس بسبب مزايا ابطاله وفضائلهم التي لا يداخلها الباطل لا من خلفها ولا من بين يديها . وهذا مقصد جلي وبخاصة لأن فئات خلقية تأتي لتحل ، في معظم الأحيان ، محل تلك التي أتينا منذ حين على تحديدها ، وهي أيضاً محددة تحديداً فريداً : فهنالك ذوو الطموح ، والمتمردون ، والغفلة ، والعقلاء ، وقد حددت مواقفهم جميعاً بالنسبة إلى النظام الاجتماعي الذي يعيشون فيه ، حسبما يتكيفون مع مقاصده أو ينكرونه ، أو يخضعون له ، أو ينهضون بأعبائه[2] والشخصية الروائية التي نستطيع من الآن فصاعداً أن نميزها في كليتها ، تماثل اذن باقة من الارتكاسات نجمت عن انتسابها إلى صنفين مترافقين ، أحدهما اجتماعي والآخر خلقي . وتعيين أحد الصنفين بالآخر في داخل الشخصيات ، وهذا التنوع في التركيبات الممكنة التي ينتهي اليها هذا التعيين انما هما اللذان يصدر عنهما آخر الأمر هذا الطابع الفردي الذي يميز الحالات والذي رأينا انه يحل لدى نجيب محفوظ محل هذا الطابع الفردي الذي يميز النفسيات الفردية ، وهو طابع يفضل الأول ارتباطاً بالتقليد في الفن الروائي .

• • •

---

(١) ضياع ياسين في « الثلاثية » وحسن في «بداية » عرض بوضوح ودقة وكأنه ناجم عن هذا الجهل .

(٢) من الطموحين : حميدة « زقاق المدق » ، حسنين « بداية » . من المتمردين: سعيد « اللص » ، نفيسة « بداية» . من المغفلين : الأب وياسين « الثلاثية » . من العقلاء حسين « بداية » ، عباس « زقاق » .

هل تلعب المدة الزمنية La durée دوراً حاسماً في سلوك الشخصيات؟

لندون بدءاً ، أن السلسلة الزمنية متنوعة كل التنوع لدى نجيب محفوظ ، ابتداء من المغامرة الاسروية الكبرى التي تتم على فترات متعددة حتى الرواية المكثفة في بضعة ايام ، بل في بضع ساعات [١] . معالجة المدة الزمنية التي نؤكد أنها تدخل في اهتمامات هذا الكاتب [٢] الكبرى ، تبدو لأول وهلة على علاقة مباشرة مع عدد الشخصيات والأبطال الذين يتوزع العمل الروائي فيما بينهم: والحد الأقصى في هذا الاستقصاء يدرك في رواية « اللص » ، حيث يجزم بطل فريد في بضع ساعات جزماً أساسياً ، تحت ضغط حادث حاسم . ومع ذلك فإننا نستطيع على العموم ان نقود الزمن الواقعي وهو الزمن الداخلي لهذه الشخصيات إلى صفة ثابتة لاتتغير . ففي الحقيقة مهما يكن جزء الوقت الذي تحياه أمامنا ، والمراد به على الدوام لحظات فريدة في الوجود : سواء أكانت انعطافاً يتم في سن البلوغ [٣] أم سنوات المراهقة [٤] ، وفي كل الأحوال ، وعلى الرغم من التنوعات الخارجية للمدة الزمنية la durée ، في قطعة من الحياة أخذت في لحظة أساسية تستدعي هذه القطعة من الحياة وتقتضي منها جواباً : وبكلمة واحدة هي بالنسبة الى الانسان الجديد المخلوق على هذا المنوال ، الوقت الذي يرى فيه النور ، والوقت الذي يرد فيه موارد الهلاك [٥] .

---

(١) من « الثلاثية » إلى « اللص والكلاب » .

(٢) انظر صفحة ٢ رقم ٨ من هذا البحث .

(٣) « السمان والخريف » ، « اللص والكلاب » .

(٤) « زقاق المدق » ، « بداية ونهاية » .

(٥) وهذا يمكن ، بعد كل شيء ان تترجم « بداية ونهاية » ، والملاحظ في كل رواية ، ان الحدث الحاسم الذي يفتح باباً جديداً في حياة البطل جلي جلاء باهراً : من =

وقد يكون من الخطل على الأرجح ان نتحدث عن شخصيات لا ماضي لها ؛ ومع ذلك فأبطال نجيب محفوظ يظلون احراراً من كل علاقة سببية تربطهم باللحظات السابقة في حياتهم ، وهم في ذلك لا يختلفون في شيء عن طريقتهم في النأي عن المحيط الذي يحيط بهـــم . وغني عن القول أن الماضي ، بالنسبة الى الشخصيات التي نصفها من حيث طبائعها بأنها أولية Primaires [1] ، لا يلعب دوراً كبيراً في المواقف التي ينبغي أن تتخذها على أثر حوادث حاسمة ؛ فهي تعيش في اللحظة الآنية ، ومعالجة المـــدة الزمنية روائياً تنتهي ههنا الى نوع من اللحظات النموذجية المتتابعة [2] . أما الأبطال الثانويون secondaires ، فلهم حقاً ماض داخلي ، ولكن يبدو أن هذا الماضي لا يؤثر تأثيراً جوهرياً على مواقفهم ، فاللحظة تحتفظ على الدوام بطابع الجدة الحصين ، كما تحتفظ في الارتكاسات التي تؤدي اليها بما هو غير متوقع [3] ، وحتى بطل « اللص » ، فانه حين يرجع الى هذا الماضي الذي سبق اقامته في السجن ليفسر ما قام به من فعل ، لا يعمل الا على



ـــمسكن جديد ( خان الخليلي ) الى سفر الشاب (زقاق المدق) ، الى موت الأب (بداية) ، الى انحطاط الابوة ( اللص ) الى العزل ( السمان ) . و ( الثلاثية ) بناء على ابعادها تقدم لوحات متعددة : زواج البنات ، موت فهمي ، وهلم جرا ...

(١) ياسين وعائشة في الثلاثية ، حسين ونفيسة في بداية ثم اكثر النماذج تمثيلا لهذه الشخصيات ؛ فهم يكادون يكونون شخصيات لا ماضي لها .

(٢) وبخاصة اللحظة الحاسمة التي تفتتح بها هذه القطعة من الحياة التي تحدثنا عنها .

(٣) المشابهة بين نفيسة في « بداية » وحميدة في « زقاق المدق » ليست حاسمة ؛ فالأولى ، وهي شخصية اولية privaire تستسلم الى البغاء الذي يبدو انها لم تعد له سلفاً : انها تسير اليه في يوم جميل ببساطة . اما حميدة المغناج ، فقد هيئت له في الأرجح لكن أكانت تسقط فيه لولا سفر عباس والتقاؤها بوسيط في الفحشاء ؟

تذكر بعض الحوادث التي صنعت منه ما هو عليه ، ولا يذكر ميلا اساسياً في ذاته : فهو لم يولد قاتلا [١] . وعليه فالرجوع الى ماض سابق في العمل الروائي لايغير في شيء من طبيعة هذا الماضي نفسها ، هذا الماضي الذي تصفه الظروف في واقع الأمر، لااصطفاء تقوم به الشخصية حر هو أو غير حر .

وعلى النقيض من ذلك إن هذه الشخصية ، كما هو الحال في روايات نجيب محفوظ كلها ، ترتبط ارتباطاً واضحاً ايضاً بنوع من التطور . فما من رواية تعود بنا بعد حادثة أو بضع حوادث ، الى موقف أولي . وفي « السمان والخريف » ، المؤلّف الذي يحدث فيه قليل من الاشياء من حيث الظاهر ، ليست القضية مع ذلك ان نعلم ما إذا كان الموظف سيظل معزولا من منصبه اولا ، وانما اذا ما كان في وسعه ان يجابه ، في هذا الموقف الجديد ، الرجل الجديد الذي آل اليه على الصعيد الاجتماعي . وهذه النهاية ، التي تزيله الى الابد من الوجود تحت جنح الليل ، تأتي بالجواب : لقد آل من موظف بسيط معزول من منصبه ، حريص مع ذلك على ان يحيا حياة جديدة ، عاطفية ومهنية يرافقه فيها حسن الحظ ، الى شخص خائر القوى فيما يبدو ، قلق على مصيره ... والحد الأقصى للتطور الذي تنتهي اليه الشخصية ، أو الذي يموت فيها [٢] . وبذلك يصطبغ نتاج نجيب محفوظ ان لم يكن بتشاؤم قاتم ، فعلى الاقل برزانة واعية عميقة ، تتيح لأبطاله شيئاً من النجاح الذي يقوم على الجلد والشجاعة اليومية ، ولا تتيح لهم مطلقاً ضروباً من النجاح يبلغونها في غير عناء . وعلى صعيد التقنية الفنية للرواية في حدودها الضيقة،

---

(١) لو تم اصلاح الطفل لتغير على الارجح كل شيء .

(٢) الموت في « زقاق » و « بداية » وهلم جرا ... موت الشخصية السابقة في « السمان » ، واحياناً موت مرتبط بموت سابق ( نفيسة في بداية ) .

إن توفر هذا الموت ، وهذه العاطفة المتطورة التي لاتفسح مجالا لدوام السعادة ، يضفيان على نتاجه صفة من اكثر صفاته أصالة . لأن الابطال اذ هم مرتبطون ، كما رأينا ، بزمن يجري ، ولا يترك لهم هذه الضروب من الفراغ ، وهذه الضروب من فترات الراحة التي يجد فيها المرء نفسه وجهاً لوجه أمام ماضيه ، هؤلاء الابطال لايتوخون اشياء كثيرة من هذا المستقبل الذي يجرون اليه جراً : فحسنين الذي يحقق احلامه شيئاً فشيئاً في رواية « بداية » معتمداً على ارادته وعلى عون الآخرين يفتقر الى هذه الفضيلة الرفيعة التي تحقق بها الاحلام نهائياً ، ألا وهي : الثقة بهذه الاحلام . فكلما نجح وقل ايمانه ، لان حظه من الوعي لقوة هذا النجاح ضئيل، سحقته الحوادث في الحقيقة (١) . إننا ندرك في يقين ، هنا وهنا، من خلال مقاصد الطلبة بخاصة ، ندرك الوعود التي تبشر بها ايام العمر المقبلة ، ولكن هذه الوعود تظل ، في مستوى العمل الروائي ، أحلاماً لاتفلح في التخفيف من سوء الحاضر والمستقبل القريب .

وعليه ففي وسعنا أن نجيب بصدد هذه النقطة على السؤال المطروح فيما قبل ونقول : إن الزمن يتدخل عنصراً اساسياً في نفسية الشخصيات غير تارك لها سوى الاختيار بين امكانيتين : فإما أن تقبل مافرض عليها من تطور نحو مستقبل يبدو فيه الصراع ، والسقوط او الموت وكأنها معطيات أكيدة ، وإما أن ترفضه (٢) . وعلى هذا المنوال قد يكون الزمن الروائي باديء ذي بدء علامة قدر مشؤوم لا مفر منه . على أن هذه الحتمية لا تحدث دفعة واحدة ، فالبطل لا يصل الى نهاية تطوره الا بعد سلسلة من المراحل التي يعقب فيها نتيجة الحادث

---

(١) مايحيط به من بؤس ودعارة .

(٢) الاستدلال المخالف ، ان الزمن السعيد في هذه الروايات كلها ، انما هو الماضي.

الأول ، نتيجة الحادث الذي يحدد العقدة الروائية نفسها . وعلى هذا المنوال فان الزمن مركّز حول مشاهد أساسية ، كأنها نبضات كبرى في الرواية[1] ، تبدو وكأنها مستوحاة من تقنية السيناريو السينمائية التي تقوم على تقسيمه الى مشاهد متعددة . والسلاسل ، ان كان في وسعنا اصطناع هذه الكلمة ، تتضح بخاصة في في « اللص » ، لأن لقاءات البطل الودية أو العدائية ، مع شخصيات حياته الماضية سمة بارزة في هذه السلاسل . وهذه التقنية [2] التي تمنح الرواية جزءاً كبيراً من حياتها ، يعززها تقنية الحوار ، ومنهجه المباشر ، البارز في النتاج بمجموعه ، يلعب دوراً اساسياً في هذا النتاج : فهنا ، بالاحتكاك بين الشخصيات على اختلافها ، والارتكاسات الناجمة عن هذا الاحتكاك ، يحدث في حقيقة الأمر نمو الرواية والتدرج فيها . ونجيب محفوظ ، بدون أن يصل في ذلك الى عبقرية روائيين آخرين [3] ، يسعى مع ذلك لتكون كل محادثة من المحادثات – التي تتلاءم أبعادها في الغالب مع أبعاد الفصل – حجر أساس في بناء الرواية : فهنالك قليل من المقاصد النظرية ، وقليل من القضايا المطروحة [4] ، ولكن هنالك حوار حي كل

(١) في « خان الخليلي » اللقاء الذي تم على الدرج بعد توطن البطل في حيه الجديد ؛ في « بداية » الخروج من السينما ، اكتشاف حسنين لنفيسة في ماخور وهلم جرا ...

(٢) وهي واضحة ايضاً في « السمان » على سبيل المثال ، او في «خان الخليلي» .

(٣) نفكر على وجه الخصوص بسالينجر Salinger وبجدارته الفنية في استحضار وصيات شخصية من الشخصيات خلال حوار ما ، كثيراً من التعابير الجاهزة ، كما وجدنا ذلك في الصور الجسمانية للأبطال ، على ان هذا لا يخفض من شأن الحوار نفسه ، ولا من نتائجه الهامة على صعيد العمل الروائي .

(٤) يستثنى من ذلك حين يمس البطل في نقطة اساسية من شخصيته ، ففي « خان الخليلي » مثلاً ، نقصد المحادثات بين المحامي الشاب التقدمي والبطل التقليدي الذي حمل الاخير على أن يعي تفاهة الثقافة التي بنى عليها مجده الباطل حتى الآن .

الحياة ، يعوض فيه الأبطال بدقة بأنغامهم الانسانية عما يمكن أن يقدمه موقفهم المستقر من انتسابهم الى جماعة اجتماعية او خلقية ، مما هو اصطلاحي يخالف الطبيعة.

هذه الانماط من المعالجة الزمن الروائي وقوامها : اختيار لحظة ممتازة ، وبطل في سبيل الصيرورة قبل كل شيء آخر ، وقدر مشؤوم يقع في سلسلة من الموجات المتتابعة ، هذه الأنماط كلها تستمر في نتاج نجيب محفوظ حتى تنسينا وجوه الاختلاف السطحية التي تعين الزمن الخارجي التعسفي الذي يشمل العمل الروائي في مجموعه . وإذا ما بدا على وجه الدقة . وكما قلناه سابقاً ، ان هذا الزمن الخارجي يتناسب في تركزه مع العدد الضئيل من الشخصيات المرتبطة بالعمل الروائي ، فذلك اذن لأن الصلة تظل مستمرة بين هذين الطرازين من العظمة اذا ما كان لا بد للبطل المفرد في « اللص » من بضعة أيام أو تكاد ليذهب الى آخر مدى في حياته الروائية ، فمن الطبيعي أن تتم هذه المدة على مراحل متعددة حين تكون نواة الرواية ، كما هو الحال في « الثلاثية » أسرة كاملة . وعليه فاننا نرى أن النتاج ، في وجوه بعده الزمني كلها أكانت خارجية او عميقة ، يحتفظ بهذه الوحدة التي شاهدناها لدى معالجة الإطار أو رسم الشخصية الروائية .

* * *

مما لا ريب فيه أن رواية نجيب محفوظ تعبر ، في الأدب العربي الحديث ، عن صوت جديد : فبأبعادها ، وبهذا الفرح الكبير الذي نشعر به لدى كاتبها في كتابته لها ، لا تقف عند حدود هذا الأدب المتأثر تأثراً مطلقاً بالقصة القصيرة [1]. وهي مما تقصد اليه ، تغلق منتصرة فيما بعد ، عهد التبني الذي ما تزال الرواية

(١) ليس المراد انكار مزاياها ، بل مجرد الملاحظة انها ليست مزايا الرواية الحقيقية .

العربية فيه تستقي استقاء سيئاً من الأطر التقليدية قومية [1] او أجنبية [2] . فقد اهتم هنا ، في الحقيقة ، برواية مصرية ، لا تحدد لنا مقدار هذه اللذة النادرة التي يمكن أن نشعر بها حين نكتشف فجأة، ونحن نعتقد أننا استنفذنا ضروب السحر الناجمة عن شكل ما من أشكال الفن [3] ، زهرة جديدة لا نتوقع اكتشافها .

ومع ذلك ، فليس في هذا القيمة الأولى والأخيرة لهذه الرواية . فاذا أغفلنا الحديث عن الأهمية التي يمكن أن يمثلها نتاج نجيب محفوظ في تاريخ الأفكار الاجتماعية أو تاريخ اللغة العربية ، فإن هذا النتاج قادر على الوقوف في وجه الآثار الروائية ، حتى خارج إطار البلاد العربية للموازنة بينه وبينها . وهنا لا مندحة لنا عن تقديره على صعيد الطرائق . فمن المؤكد أن رواية نجيب محفوظ ليست رواية منتصف الليل roman de minuit وان الاهتمامات التي تشغل بعض علوم الجمال المحدثة غيها ما رقيقاً في الوقت الحاضر [4]: فنجيب محفوظ من حيث تقنية الرواية يتصل اتصالاً قريباً بالمدرسة الاتباعية l'école classique ، التي تعتبر الرواية تعبيراً أدبياً عن مغامرة إنسانية ، وضعت ثابتة في سياقها الزمني الثلاثي الوجوه ، وفي سياقها المادي والنفسي . ولذا فإذا أردنا أن نحدد مدى الأصالة الذي

---

(١) مثال ذلك : حديث عيسى بن هشام للمويلحي .

(٢) ترجمات لا شأن لها ( من مثل ترجمة حافظ ابراهيم للبؤساء Les Misérables او روايات متأثرة بأسلوب روائيين أغراب وفكرهم : سارتر ، كامو ، فرانسواز ساغان ، والرواية الروسية ... )

(٣) انظر من أجل السينما اليابانية الجديدة أو عرض جوها Gohs .

(٤) وعلى نقيض ذلك ، « يا طالع الشجرة » لتوفيق الحكيم ، فهو شاهد كاف في نطاق المسرح ؛ على تجربات جديدة مستوحاة من طريقة بيكيت Beckett أو أداموف Adamov .

يبدو فيه نتاج نجيب محفوظ للعيان في تاريخ الرواية العام ، فلا بد لنا من أن نوجه أبحاثنا إلى تقديم الشخصيات ، لا إلى معالجة الزمن ولا إلى معالجة الإطار le décor [1]. فهنا، في رأيي، يكمن نجاح الكاتب الأساسي. وإن هذا التوازن الخفي بين ما تقتضيه قصة من القصص من أشياء ضرورية فريدة، ونموذجية الأبطال المرتبطين إرتباطاً وثيقاً بتاريخ قومي أريد أن يكون ماثلاً في كل شيء، وهذه الدراسة لشعب بأكمله من خلال بعض ممثليه الذين أقيموا في منتصف الطريق بين الأصالة الروائية والتهييج الملحمي ، تتجاوب في غير شك مع حرصه المؤكد على أن يكون ابن عصره . وعلى عالم الاجتماع أن يقول فيما إذا كان طموح نجيب محفوظ قد عرف كيف يجيب على الرغبات التي يطمح الى تحقيقها وعي قومي حريص على أن يجد ذاته في نتاج الفنان . ولكن الناقد يستطيع أن يقول، ومنذ الآن ، إن هذا الوعي القومي الذي قام بأعبائه كاتب العبقرية نجيب محفوظ يؤكد لنتاجه أصالة صميمية في نطاق الأدب العربي، بل وحتى في نطاق الرواية العالمية

(٦) مادام عنصراً تقنياً ، بكل تأكيداً ، لا اطاراً اجنبياً ، في اعيننا باعتبارنا أجانب .

# عند الجاحظ

سليمان العيسى

من ديوانه الجديد :
« أغنية في جزيرة السندباد »

٢١ ـ عودة شهرزاد :

شهرزاد

« تظهر فجأة امام الشاعر وهي تضحك »

كان الحديثُ مُضيئاً (١) .. كنتُ اسمعهُ

الشاعر

وأين كنتِ ؟

شهرزاد

على أرجوحة القَصَبِ
تموّجت في شعاب النخلِ أغنيةٌ

---

(١) اشارة الى قصيدة « حوار مع الخليل بن احمد » . من الديوان نفسه

فغبتُ فيها ..

الشاعر

خذيني ..

شهرزاد في جد

لستَ للهروبِ ..
مُسمَّر أنتَ في الصحراء متحدٌ
بالأرض ، ممتزج بالكأس والعنبِ
بالحزن يحمل تاريخاً برُمَته
في مَنكبيه .. وحلماً في جفون نبي
معذّبٌ أنتَ .. مصلوبٌ على حُلُم

الشاعر

أنا الذي اخترتُ ..

شهرزاد

واصلْ رحلةَ السَّغَبِ (٢)
لا تَنْشُدْ الظلَّ ، لا تحلمْ بزنبقةٍ
على الطريق .. تشرد وحدكَ .. اغترب
إقبضْ على الريح ، واسقِ الظامئين بها
وأطعم الجوعَ والجَوْعى دمَ الحِقَبِ ..
دمَ الظلام عميقَ الموتِ .. تَجلده

(٢) السغب : الجوع .

ولا حَراكَ .. تمزّقْ وحدكَ ، اغتربِ

لا . لستَ للهربِ ..

لا . لستَ ياشاعر الأصفادِ للهربِ !

الشاعر

« في شبه توسل »

ياروعةَ الليلِ .. يا أسرارَ فتنته
ويا أساطيره النشوى .. وريّاهُ
على جمالكِ .. فتّحنا محاجرنا
ومن حكاياتك السُّمر ارتشفناهُ
كبرتُ ، ياحلوةَ العينينِ ، في رَهَقي
كبرتُ في حمل تابوتي وموتاهُ
في صدركِ الحبُّ ملءُ الليل نعمتهُ
وفي ذراعيكِ ينسى الشعرُ بلواهُ
أقاتلُ الدربَ .. كي تخضرَّ نرجسةٌ
على جناحيكِ .. يا أحلى عطاياهُ
أليس للمُجهَدِ المكدود زاويةٌ
على بساطكِ .. والدنيا زواياهُ ؟
أنتِ التي نسجتْ لليل أجنحةً
واعطتِ الجسدَ الجَوْعانَ معناهُ
وبرعم الشعرُ في نهديكِ أغنيةٌ
يقال : عتّقها في عوده اللهُ

وتشرقين على صحرائه غَزَلاً
حلواً فتغرقُ في عينيكِ صحراهُ
خذي حِواري ..
خذي صمتي ..
خذي سَفَري ..

شهرزاد

« تأخذ بيده مرة أخرى »

هيهات ...
هيَّا .. نتمّمْ مابدأناهُ !

**٢ ـ عند الجاحظ :**

الجاحظ



« يبدو في وسط الحجرة شيخاً مهدماً ، مقعداً ، لا تفارقه روح البشاشة والمرح . يشير بيده الى رفوف الكتب التي تملأ الحجرة من حوله . الشاعر وحده على باب الحجرة مع شيخ الكتاب . »

زَحمتني .. فلا أطيقُ حَراكاً
في مكاني .. ولا أسيغُ قعودا
اثقلتْ كاهلَ الجدار .. فبيتي
يتشكّى رُكامَها مكدودا
الرفوفُ الحُبلى .. واخشى إذا ما ـ
لت ـ وُقيتَ الأذى ـ اكون الشهيدا

« يضحك ضحكة مرحة .. ثم يعود الى الجد »

ورقٌ قصتي هنا .. ومدادٌ
ورقٌ يأكل الحياةَ نضيدا
كنتُي .. لو ابيعها بنشيدٍ
قمةُ الحلم ان تكونَ نشيدا
بحديثٍ حلوٍ تقهقه فيه
طرْفةٌ لا أملُّها ترديدا
الرفوفُ الحُبلى .. تجنّبْ اذاها
والتمسْ ، ان وجدتَ ، ركناً بعيدا
هذه حجرتي .. واهلاً وسهلاً
قتلَ الحرفُ عمرنا تقليدا

الشاعر

انا ضيفُ التاريخ ..

الجاحظ

دعكَ من التاريخ ..
لاتقتحمْ سكونَ الظلامِ
انا تَوْقٌ اليكمْ ، وحنينٌ
وانتظارٌ مر وراءَ الركامِ
انا تَوْقٌ امدُّ طرفي الى الآتي ،
وحسبي بما اراه امامي
ادفنِ الشوقَ في الفلاة وخذني
مرةً في الأثيرِ .. فوقَ الغمامِ

انتَ آتٍ على قوادم «عفريتٍ[1]»
يجوزُ الفضاءَ كالأحلام
بجميعِ الذي كتبتُ نهارً
امتطي الريحَ فيه من ايامي
آهِ .. ما أروعَ السحائبَ يَشْمخنَ
ليلحقنَ ظلكَ المترامي
سبقَ الفكرُ يا صديقي رؤانا
طار خلفَ الظنون والأوهامِ
أنباوني أنَّ المراكبَ في الجوِّ
تشقُّ السماءَ مثل السهامِ
تصل الأرضَ مثلما تصلُ الهدْ -
بين نجوى ، او خطرةٌ في منامِ
أنبأوني أن السماوات صارت
- قدَّس الربُّ - موطىءَ الأقدامِ
واذا الكوكبُ المنير .. ظلامٌ
وفراغٌ كالموت .. كالاعدامِ
سرقتْ عمرَنا الأساطيرُ ما جدْوى
قعودي .. في كهفها . وقيامي ؟
لو تحررتُ ساعةً من قيودي
بالتحدّي صرختُ : هاكَ زمامي !

---

(١) اشارة الى الطائرة .

مرحباً ، أيها الصديقُ ، وقل لي
كيف أنجو من هذه « الأصنام » ؟

الشاعر

« في صوت هادىء وإجلال

أيها الكوكبُ المشعُّ على أرضي
يُضيء الأقلامَ جيلاً فجيلا
ما تزالُ التاريخَ إلاّ لألقاكَ
عِناداً يروّض المستحيلا
أنتَ بوّابةُ العصور ، تقحّمتَ
على العقل برجه المجهولا
عالَم أنتَ من مدادٍ وضوءِ
عالَم لا يموتُ .. فاهدأ قليلا !
أنا آتٍ على قوادم « عفريتٍ »
أجرُّ الدمارَ والتنكيلا
ليس لي من روائع العصر إلا
ما تراه .. ضراعةَ وخمولا
القناديلُ في يديكَ .. فعلّمْ
جيلنا كيف يُشعل القنديلا ؟
القناديلُ .. نحن تذكارها المرُّ ،
لوانّ التذكارَ يُجدي فتيلا
قد حملنا عبءَ الحضارة يوماً

وحملنا ضريحها .. إكليلا

الجاحظ

« يرسل زفرة عميقة »

هدّني الليلُ ، هدّني	فوق أوراقيَ السهرْ
انا جذْعٌ مهشّمٌ	في فم الداء يُحتَضَرْ

* * *

كلُّ شيءٍ إلى البِلى	إنها دورةُ الفلكْ
ليتني عدتُ سيرتي	بائعَ الخبزِ والسمكْ(١)

* * *

الشاعر

من هنا يبدأ السُّرى	كلُّ صادٍ الى الشفقْ
من ضَبابات شارعٍ	وحوانيتَ للورقْ



* * *

سنّةُ المبدعين .. في كل آنٍ
ومكانٍ .. مابدّلتْ تبديلا
ينسجون الغبارَ تاجاً على الدهرِ
وظلاً للقادمين ظليلا
سنةُ المبدعين .. نأخذ ما أَعْـ
ـطَوْا ، ويَنْسى المقلّدون الأصيلا

(١) كان الجاحظ في حداثته يبيع الخبز والسمك في البصرة ليكسب قوت يومه ، ويكتري دكاكين الوراقين ليلاً ويبيت فيها للمطالعة .

نتمطّى ، نشدُّ قاماتِنا الكسلى ،
ونبقى في السفح شيئاً ضئيلا
انتَ اقوى مهشّماً في فم الداءِ ،
واعتى مهدّماً مشلولا !

الجاحظ

« يبتسم .. كأنما يريد أن يغيروا الحديث »

بُخلائي في عصركم كيف أمسوا ؟

الشاعر

« بعد لحظة صمت »

ضَخُموا جُثّةً .. وزادوا ثراءً ،
ولقتْ في دم الملايين أيديهم
فما يحصدون الا الدماءَ(١)
مَلكوا الأرضَ غاصبين ، وكانوا
ثُلّةً تشبعونها استهزاءَ

الجاحظ

مُفزعٌ ماتقول ... كيف سكتتم ؟

الشاعر

ماسَكتنا ...

---

(١) يتصور الشاعر بخلاء الجاحظ وقد انقلبوا الى اصحاب رؤوس الاموال الذين يستغلون البشرية ويلعبون بمصيرها في العصر الحديث .

الجاحظ

أترهبون اللقاء ؟...

الشاعر

بعضنا آثر السلامة والصمت ..

الجاحظ

وبعض ؟

الشاعر

تكلموا شهداء !

الصراع العنيد في كل ركن

ساحة فجرت ، وصبح أضاء

عرفت لعبة السلاح الملايين ،

وثارت ... لو تسمع الأنباء !



الجاحظ

عجب ما أرى ...

تبدلت الدنيا ...

الشاعر

« في ألم »

ولبى فيها سوانا النداء ..

# أقبل الزمن المستحيل

ممدوح عدوان

ها هم اجتمعوا يطلبون بك الفرح المستحيل
أنت ياانبع دمع ، وعادات حزن
تعال ادع الفرح المستحيل
زور الهل ، أخرج من الكم شمساً
ومن جرحك القاتم اسحب
ضياء الصباح الجميل
ها هم اجتمعوا ، جهزوا السرج والفرسَ
استقبل الشوط ،
فالفرس الدمية استقبلت شوطها والصهيل
ها هم اجتمعوا أعيناً هيئت للدموع ،
حناجرَ فارغة جهزت للعويل

ها هم معد للطعام ، وأعصابهم أسرجت للتعب
وقفوا بين أيدي التعود
أنت الذي عود الناس أن يرضعوا
منذ جاؤوا وحتى الكهوله
عندهم يتمادى الى أرذل العمر لثغ الطفوله
ها هم ابتسموا
هيأوا لك أفراحهم مثل قضبان سجن ذهب
فابدأ الرقص كي يحلموا انهم يعزفون
وابدأ الندب كي يحلموا انهم يحزنون
واختتم بالصراخ لكي يحلموا أنهم يغضبون
ابك واضحك وسر في تخوم الجنون
ها هم اجتمعوا ..
هل ستقوى على كلمة الحق قبل احتوائك
في كف نخاسهم ؟
أنت آخر فهد فغابات مجدك اضحت صحارى
وجموع توالت تطارد جنسك حتى الابادة
انت آخر فهد ، وانت الذي لم تروض
وهم خلعوا الناب والمخلب الدموي
جلودَ الفهود ، ارتدوا بعد الهرره
انت آخر فهد طريد وحولك يجتمع السحره
سوف تبقى لمتحفهم رمز وحش فناه الزمان

وستترك حراً وحيداً بأعماق سجن بدايته في الولاده
سوف تبقى ، ويجتمع السائحون لكي يشهدوا الوحش
كي يألفوا منظره
سوف تضحي لهم لعبة
يطلبون التثني ونوم العجوز ، وحلم الصبيه
وتلبي بغير إراده
ويلهون باسمك مالاً من البرره
ها هم اجتمعوا واحاطوك بالحب ،
إذ عميت مقلتاك عن المجزره

ها هم اجتمعوا :
قل لهم إن جبروت وعر الحقيقة عري العروس
قل لهم كيف أرسلت للحروب ،
كيف وصلت التخوم ولم تلقها
كيف فتشت عنها الخنادق ،
كيف تجاوزت خلف خطاها الزمن
قل لهم كيف عدت وحيداً ولم تبصر الحروب
لم تر في ارض دارك ارض الوطن
قل لهم كيف لم يقنعوك
حين قالوا بأن طيوراً تحوّم كل مساء
وتنقض تخطف بين مناقيرها تربة الأرض ،
تسرق لحم الضحايا

وتترك في الرمل اشلاءهم

لاتخلي على الرمل إلا دماء اغتصاب السبايا

قل لهم كيف صدقت ، كي لاتموت ، الحكايا

وضحكت لكي لاتجن فأتقنت ضحكاتك الماكره

كيف كنت تلوح سعيداً

وانت ترى تربة الأرض تركض دون رياح ودون سيول

كيف اقنعتهم بالذي كذبوا

كيف قدمت من كتب الجن طيراً عجيباً

يشيل الحدود ، وينفض كالقمل من جانحيه الخيول

كيف ابصرت ارضاً تُزَوَّر ،

كيف تحولت الجنة الآن مثل الجحيم

كيف تهمس صبحاً مساء لنفسك هذا العذاب المقيم

أنت ياطفلة في الصميم

اسمك القدس أم أورشليم ؟

انفي عنك الملابس ، أظهر لهم بصمات اللصوص

وضرب السياط

ولا تخشى ان يدعوا الشهوة الماجنة

لن يلوطوا ولن يشتهوا ،

كلهم ماجن العين والقول ، لكن خصي

عذوبة صوت الديوك تخبىء بين العروق

دم الصفة الآسنة

أصبح الحس إسفنجة ، تشرب الوخز والعار ،

ترخيه بعد قليل هدوءاً ونوما

أصبح المر طعماً اليفاً ، وفي النوم يمتد صوت المنبه حلما

لم يموتوا ، فهم ينزفون رجالاً وأرضاً

ويبكون باسم اللياقة بين الجنائز

يمضون حتى المقابر

لم يدركوا انهم يدفنون

غلفوا فلتة الأمر منهم ، وأخفوا القلوب الطعينة

ثم كزوا وأدموا الشفاه

وغنوا الأغاني الحزينة

من سترثي هنا ؟

أي ميت عزيز ستبكي ؟

أيا متقنا لغة الموت خاطب بها الميتين

واجتهد ان تواري ما اعتدت في لحظات العذاب العظيم

انت ياطلقة في الجبين

هل يرد الرصاصة ، اذ أطلقت باتجاهي ، جبيني الحزين

انت ياطعنة في الصميم

اسمك القدس أم أورشليم

* * *

كل عار بدمعة صمت

وكل البلاد باطراقة من حزين

لم يعد ماء دجلة عذباً ، ولا النوم في الغوطة الحالمة
صدم الحو قضبانه
عرف الارض زنزانة
ادركته الكآبة ،
انى توجه فهو السجين
لم يعد في الشوارع غير الزحام بلا بشر ،
وبلا ظلمة بقيت قاتمة
لم تعد تجلب الريح من بيدها غير هذا الغبار بلا تربة ،
غير هذي الغيوم بلا مطر
غير هذا الصهيل بغير خيول
ووجوه بغير عيون تفتحها فتنجو من النار ،
كل العيون ارتمت نائمة
لم يعد في الزمان سوى تكتكات عقارب مشلولة
لاتطيق المسير
ليس هذا زماناً هو الوقفة الغائمة
ليس هذا زماني وليس زمان الضمير
خانني قائد الزنج في وسط الحرب
جيش الخليفة يطلب رأسي
وجند التتار يرصون حولي الصفوف
وعلى درب بغداد صلبان من لم يبيعوا السيوف
تحت أي لواء سأشهر سيفي

وأي لواء يكفنني اذ الاقي النهاية

ماالذي يفعل السيف ؟ والغمد ضاع

وسيفي أضحى وشايه

من يجيء سيفاً ، وظل الخليفة في كل ارض يطوف

ليس هذا زماناً هو الزمن المستحيل

اقبل الزمن المستحيل الذي كنت اعرفه في حكايه

فيه من يمسك السيف مثل الذي يمسك النار دون درايه

يشهر السيف جوعي

وخوفي تمزقه ،

كيف اخبيء سيفي

وجوعي معي

والطريق استحالت صحارى

ورمل الصحارى يشير الي ويتقن عني الوشاية

يترهب جوعي ولكن مسوح التقية لاتستر الشهوة العارمة

حولي الآن تبدو بقايا من الارض

أو هيكل ... فقرات ، سلامية جمجمة

ظاميء مات غرقان في النبع

اعمى تضل خطاه الأشعة

ميت قضى متخما بالحياة

وانا خائف من شجاعة جوعي

ومن زمني المستحيل

واقف شجراً ظامئاً في الصحارى

وماني ادمن طعم الرحيل

حولي الخوف يضحي تراباً ، ويضحي سماداً

ويضحي بذاراً ويضحي ثمارا

يزهو الخوف موسم جوع

مناجل تحصد جوعي

ويضحي هنا عرقاً يتصبب ، يضحي فخارا

يلتتح الخوف في السهرات حكايا المذلة حتى

تزين في اعين الساهرات السكارى

يصبح الذل نوماً ويقظة وسنى

وماء لغسل وجوه الحيارى

يصبح الذل طقساً ، ويضحي اثاثا

وعرضاً نستره ، ثم يضحي ستارا

يصبح الذل ضيفاً عزيزاً ،

قرى الضيف ،

يضحي لإكرام من زار ،

او هدي من ضل نارا

يصبح الذل اضحية في المواسم ،

يضحي بخوراً .. ويضحي مزارا

لون الذل ريش الطواويس حتى تباهوا به في عناد

هاهنا امتلأ السوق بالذل ، فلتبدأوا بالمزاد

* * *

انت ياطعنة في الصميم

قال لي دمك النازف اليوم لاتبتئس

لم تزل في الزمان بقية

لم يزل ما تبقى من العمر عمراً ولو كان مثل الهشيم

لم تزل في العذاب تقاوم هذي السبيه

قال لي دمك النازف اليوم

رغم الجفاف الينابيع تبقى سخيه

غزتي اليوم أضحت مسيحاً

دما طازجاً عذب الصائغين



صراخة :

قف أياشارب الخمر لا تقترب من دماء المسيح

انه لدم ساخن إن لمسناه بغير وضوء يصيح

اي صوت سمعنا وقد سقطت غزة الجرح في حضنهم

هل تعود المدينة جرياً الى قومها الهاربين

هل تعود السبية إذ تشتهى وتراود للميتين

كيف تقوى على جر خطو خضيب

وحقد مقاومة العمر عزلاء للمشتهين

غزتي وحدها في الليالي صباح

غزتي زهرة في مهب الرياح

وحدها وقفت بعد مقتل فرسانها

بعدما ضاقت الارض ، سد الكماة المداخل

حوصر نبع برمل الصحارى

وحدها وقفت بالاظافر تدفع وحش الجموح

وبالحسن لما تقدس تدفع عنها اشتهاء السكارى

وحدها نفس يتردد تحت الخناجر

همس سمعناه بين الرعود

وساقية ترطب حلق الرمال

وحدها أعين لا تنام

تظل تراقب أختاً بنار الجحيم

وحدها صرخت في الظلام البهيم :

أنت يا طعنة في الصميم

اسمك القدس لا أورشليم

أقبل الزمن المستحيل ولكن أتتها الدرايه

غزتي تمسك السيف ناراً

فتجعل نار الجريمة سيفا

تخط به الدرب حتى النهايه

# الفـــرص

حسب الله يحيى



شكل طلبة الصفين الأول والثاني دائرة غير منتظمة في صباح يوم خميس وكانت حصة الرياضة هي أول الحصص، ولم أكن راغباً في ممارسة عملية، فالأطفال يحبون هذا الدرس، غير ان الجو كان لا يبشر بالصحو والنسائم الصباحيـــة كانت باردة، وفضلت الخروج الى الفضاء على ان احدق مـــع التلاميذي طوال خمس وأربعين دقيقة في جدران أربعة. جئت بطالب من الصف السادس ليكون ترجماناً بيني وبين الصغار.

قلت بصوت عال:

– الدائرة يجب ان تكون منتظمة.

وبلهجة صارمة قال الطالب بضع كلمات لم أحفظها، غير انني عرفت انها ترجمة باللغة الكردية لما صرحت به.

ثم قلت ايضاً:

- ستكون اللعبة الأولى ملاحقة بين القط والفأر .

ومرة أخرى مضى الآخر يترجم .. وعندما انتظمت اللعبة تركته.

مضت فترة طويلة على ممارسة الملاحقة ، أحسست بملل تلاميذي ،حتى ان أحدهم قال فجأة كلمات لم أفهمها ، فإضطررت إلى الصمت والمتابعة .

ماالذي يجعل هؤلاء الصغار يفهمونني وأفهمهم غير اللغة لاتكون ثمة جسور من الكلمات تصلنا . حدقت في الوجوه السمراء اليابسة ، في الشعر القذر والمقصوص أحياناً بالحاح إلا من حزمة امامية . كانت الأصابع رفيعة هشة وسطح الكف متشقق دائماً .

الملابس ملونة فاقدة المنظر ، عليها تتراكم البقع والترقيع ، في القدمين لاشيء يحتذى ، النادر ان تعثر على زوجين من حذاء مطاطي رخيص .

وأشعر باشفاق عنيف يصير في قلبي أشعة متوهجة بالحب ، ولكنني لا أملك إلا لمسة قصيرة على الرأس فازرع اصابعي بألفة في رؤوس التلاميذدون أن احدثهم ، لأننا لانعرف لغة بعضنا .

رفعت ذراعي الى الأعلى وأدرك الطلبة العشرة الذين كان بينهم تلميذتان نشيطتان وناعمتان في آن واحـــد أثناء الكلام واللعب . . بأنني أعني الوقوف ، وسرتني الحركة الجديدة التي لم أكن أقصدها ، فقررت الافادة منهـــا ، هبطت بذراعي الى الأسفل فجلس الجميع ، ومرة أخرى فعلت . رفعت ذراعي وقلت : « قيام » ثم أرخيتها الى الأرض بعنف وهتفت « جلوس » .وضحكت في اعماقي عندما فعلت ذلك وعرفت ان الحركة شارة بيننا للتفاهم.

ابتسم مستخدم المدرسة الوحيد كاشفاً عن أسنانه المصفرة وقال عـــدة

كلمات وجدت من الضرورة ألا أسأله عن معناها وهو يخاطب بها للمبدأ ، بينما كانت إحدى يديه مشغولة بلف سيكارة . كنت أكره وجه البابس وإهماله لكل ماعليه من واجبات . كنت أراه مستلقياً على الأريكة وكل ماحوله قذر ، ولا هم له سوى التدخل في مالا يعنيه وقد قررت أن لااهتم به أبداً .

نظرت الى ساعتي ، خمس دقائق وينتهي وقت الدرس . استعد الطلبة . دخلوا الصف بنظام .

كنت أحب ان يسود النظام دائماً .

واجهني مدير المدرسة بكلمات خشنة عندما شاهد دخولة الطلبة الى الصف .

- أستاذ لم ينته وقت الدرس .

نظرت في وجهه . طبعت نظراتي في عينيه المتورمتين حيث ترك الصباح ماساد الليل من إلحاح في النوم وخموله ساعات طويلة .

- أعرف .

حاولت الاختصار ، أعرف أن ذلك يغضبه ، ولكنني وجدتها مناسبة لحوار أضمن لي الغلبة في نهايته .

أضاف هو :

- لماذا فعلت الخطأ ...

دخل التلاميذ الصف والوقت لم ينته بعد !؟

كان الزبد يتطاير مابين شفتيه ، عيونه متوهجة ، وجهه بلا دم وتسوده الخشونة رغم ان موسى الحلاق قد لعب على خديه بإلحاح . فكرت ان أبتسم وامضي ، لكنني أجبت :

ـ أستاذ دخول الطلبة الى الصف كنت أقصده لغرض التعود على النظام والاستراحة ، ثم الاستعداد للدروس الأخرى .

حرك رأسه ذات اليمين والشمال وقال :

ـ أنت تجيد الحديث دائماً ، لك الغلبة كأننا في مباراة .

ـ أجدت . لماذا لانتأمل الامور ثم نناقشها .

واختصر علينا الحديث زميل لي كنت أحبه أحياناً وأكرهه تماماً في أحيان أخرى ، وكان والوقت والموقف يجدد ان لي هذا الحب والتعاطف . قال :

ـ الجو جميل هذا الصباح .

جميل ، ماالذي يحمله من موسيقى وألوان . يعرف انني أكره الأشياء التي تخلو من حرارة تعبيرها ، وبخاصة هذا الصباح الممسوخ عبر رماديته التي تجمع قتامة الليل وانبلاج النهار .

لم أقل شيئاً ، فقط حدقت فيه ، اقرأته معنى صمتي .. اضاف :

ـ ربما تأخرت في اليقظة صباحاً وذهب وقتك المفضل للقراءة .

استعاد المدير نشاطه كموجه للمدرسة ، ولكنني لم اكن اتصوره في تلك اللحظة اكثر من زنبور له دور ينتهي بانتهائه .

قال بأسلوب حاول اتقانه :

المطالعة ليست اكلا وشربا ، لكل شيء حدود .

تدخل فراش المدرسة :

الاستاذ لايهمه كل الناس ، المعرفة عنده كل شيء ، بينمايوجد لدى البعض ماهو أهم بكثير من الكتب .

قلت في سري ، لاأجد مناسبة للمزيد . سابقاً قلت ان الكتاب عندي اعظم مافي الوجود ، واعتذرت عن جلسات عديدة يتخللها الضحك والطعام وأغان مائعة يبعثها جهاز تسجيل حديث .

ارسل في طلبي شيخ القرية ولم أذهب. تمارضت وقال الجميع على مسمع مني ، انني افضل القراءة . وعندماتكرر الطلب كان لابد لي ان ازوره .

* * *

الفرصة التي اعقبت الدرس الاول انتهت ، دخلت الصف السادس ، طبقت الخطة المدونة في دفتري ، جمعت دفاتر الواجب البيتي لدرس قواعد اللغة العربية لأقوم بتصحيحها بعد انتهاء الدوام ، ثم مهدت بمقدمة لموضوع « المذكر والمؤنث » . جاهدت في التوضيح بامثلة عديدة . حتى انني طلبت مساعدة تلميذ نشيط تعلم من ابيه اللغة العربية في توجيه التلاميذ الى بعض النقاط المهمة ، وحين اكملت الشرح استعدت الموضوع باللغة الكردية عن طريق تلميذ آخر ، ثم ضربت امثلة جديدة وسألت التلاميذ :

ـ المرأة مذكر ام مؤنث ؟

صمت مطبق ران على الجميع بما فيهم انا والجدران والسبورة ومقاعد الطلبة وجدول الدروس والصورة الشخصية التي لاتوحي بشيء لزعيم تاريخي .

تسللت بناظري عبر النافذة ، احتواني العالم بسحره . تطلعت الى نهر الزاب القريب مني والى قرية كردية صغيرة تحتضن بيوتها الاشجار والتلال الخضر والسماء التي بلا لون ، ثم حدقت في وجوه الصغار التي منحتها طقوس الطبيعة سمرة داكنة .

سألت نفسي بعد ان حصرت نظري في ابعاد المنظر الذي تسلل الى

فؤادي عبر النافذة الضيقة الوحيدة .. هل يمكن لهذه الوجوه ان تشخص المذكر من المؤنث وتفصل بينها ، وماالذي جمع بين المرأة والرجل ، انها علائق تعيش معنا نحن الذين نتشبع بمعرفة الجنس والفرح ، اما الصغار فيبحثون عن الحنان في احضان ابوين ، وعن دمى وحلوى .

جددت سؤالي رغم ذلك ثانية :

ـ المرأة مذكر ام مؤنث ؟

لم اعثر على اجابة تالية ، ولم ينقطع تلاميذي عن تأملهم كما لم انقطع انا الواقف أمامهم ببذلتي السوداء وربطة عنقي التي تحمل اللون الاسود أيضاً والتي اذكر أبداً تاريخ تمتعها بالعافية على جسدي النحيل . واذكر ان امي كانت تقول لي دائماً :

ـ انك نحيل ، لم يبق منك سوى الجلد والعظام ، وجهك يزداد سمرة . لاتفكر ياولدي . سأزوجك من فتاة عاقلة وجميلة .



اخجل من نفسي ومن امي ، أقول ان هزالي لامبرر له في القرية . استطيع ان اقرأ بنهم ، وهذا ما كنت احلم به ، ثم ان طعامي خلال الوجبات الثلاث يقرب الى الجودة ، وهذا لايهم مادمت احب عملي وفراغي .

فاجأت نفسي في صف وامامي طلبة ابادلهم الحب .. اذن ينبغي ان أثبت وجودي أمامهم .

اعطيت جملا جديدة وامثلة كثيرة .

نهض تلميذ في عينيه الصغيرتين البندقتين قرأت احزان العالم . حدق في ثم خفض رأسه الى الاسفل وقال

- نحن لانهتم بالمدرسة وانت تتعب معنا كل يوم . شيخ القرية يلح علينا بأن نتابع الدراسة ،بينما نبحث عن الخبز ونفكر بالموت جوعاً لا بالدروس ..

لم يثر تعقيبه لديّ الغيظ وانما شعرت بمشاركة قاسية تفضحني وانا امارس الحزن . لم أجد أي تبرير لسؤال سخيف كهذا :

- هل انت تتحدث عن نفسك،أم عن مجموع التلاميذ؟

ينبغي أن أعرف بأن العيون تحمل اسراراً تفضحها نظراتي الكاشفة .

تابع آخر :

- استاذ .نحن لانملك ثمن الدفاتر

وقال ثالث :

- استاذ أعطيك دجاجة فهل تعطيني دفاتر

وتربص رابع :

- دفاتري كاملة ياستاذ

تطلعت إلى دفاتره فأثارتني . لقد كانت من نوع غال ويمتاز بالجودة ، سألته بلهفة :

- من دفع لك ثمنها ؟

- ابي .

اوه . نسيت في لحظة احزاني . انه ابن الشيخ ولم أجد عبارة استطيع بها انقاذ نفسي من الحرج ، والحقيقة تتربصني ، لزمت الصمت . مع ان ذلك لايناسب معلماً مثلي عرف بنصائحه واهتمامه بأمور طلبته .

كانوا اربعة يجلسون على مقعدين تكسرت اخشابها ، والى الغرب منها ثلاثة من الصف الخامس والغرفة عادية والضوء فيها مخنوق كالهواء ايضاً . ثمة شباك أشبه بكوة عميقة يتسلل منها خيط قصير لنهار حي يوجد احياناً ، يرتفع مقترن

عن سطح الارض ، قصبه عار ومائل الى الاسفل ، والجدران الاربعة طينية قذرة ،وهناك آثار باقية لبرك مائية داخل المسكان حيث تتساقط المياه مدرارة في أعقاب الامطار التي يمكن ان يحبها الناس في القرية ويكرهونها أيضاً لأن الخير الذي تعطيه يذهب الى الشيخ ، بينما يجاهدون لانقاذ أنفسهم وعائلاتهم من المياه التي تتسرب الى داخل حجراتهم التي تشبه كهفاً مغموراً بالظلمة .

لم أجد الجرأة لأن أقول علانية رأيي بينما ينتظر التلاميذ هذا الرأي .

- ماالذي يمكنني ان اقدمه . لقد اعطيت لبعضكم الدفاتر مجاناً ، مع أن ذلك لم يكن من واجبي . إن المهم هو مسألة التحضير اليومي ، والرغبة في المدرسة .

تحداني احدهم بنظرة قاسية شعرت بمرارتها . قال :

- يهمنا الطعام ، وعندما ينتشر الشبع في بطوننا سنتعلم حتماً .

سألت نفسي ، ما الذي يجعل هذا التلميذ يتحدث بصيغة الجمع عندالتعبير عن مشكلاته ، ولماذا يقدم على عرضها بسهولة وجرأة ، ولكنني لم أستدل على طريق يقودني الى اجابة سليمة ..

صفـــع وجهي هواء بارد حين فتحت باب الصف المكون من صفيح صدىء وثلاث قطع عرضية من الخشب ثبت في استطالة ليست منتظمة .

تطلعت الى الخارج . احترقت عيون اربع في بحر مقلتي . كان المدير قاسياً يضرب بلا رأفة ، بينما كان المعلم يقف دون اكتراث .

امرعت ، اقدامي كانت تجرب الطريق الموحل . قلت .

- استاذ كفى ، اعرف ايضاً انه لا يحضر واجبه وانك ستحطمه .

رأيت التلميذ ينكمش وقطرات دم تنزف من خلف اذنه وانفه وتتساقط الى الارض مشكلة مع الوحل لوناً حاراً من التوجع ، بينما يتطلع وجه المدير اليه قاسياً وخالياً من الرحمة ، في صوته الاجش وحركاته الغضبى ، والمعلم الآخر يتمثل المشهد « آه .. لاشيء يعنيني ، المدير يمارس عملا اداريا ليس من اختصاصي» وأجبته :

- ولكنك انسان ، فلما تخلو حياتك من المشاركة في هموم الآخرين .

- لاشيء يعادل عدم الاهتمام بامور لاتعنيني .

ومرة اخرى لا اعقب على كلامه ، فالحديث غير مجد . المدير يضرب الطلبة بقسوة ليداري فشله في التدريس وعدم فهمه للصغار الذين يأتون الى المدرسة قسراً ، وبطونهم خاوية . إن الجوع ورائحة الطعام في بيت الشيخ القريب من المدرسة يسلبانهم إن كل آمالهم في التفكير بشؤون الدراسة ، والمعلم ساذج يبحث عن ضحكة وحديث سمر .. وقد أسر إلي أثناء الفرصة بما يلي :



احتسى فنجان الشاي الذي أعده فراش المدرسة تحت الحاح خاص من المعلم للترفيه عن السيد المدير .. بعد جهد وعناء متواصل في الكشف عن السر قال:

- استاذنا عاشق ، امره مفضوح في القرية وانت مهتم كل الوقت بالقراءة والبحث عن هموم التلاميذ .

لم أثر كما كان يحسب ، ابتسمت .. ذلك عندي اشبه بالمجاملة والتعويض عن حديث فاشل لايجدي .. قلت بعدئذ :

ـ وما الذي حدث أيضاً ؟

ـ ألا يكفي هذا ؟

ـ بصراحة . . الأمر لايثيرني .

أعرف ما الذي يثيرك . . مديرنا أرسل جواباً على كتاب رسمي وصله من مديرية التربية بخصوص الاعتذار عن عدم توفر بعض اللوازم التي تحتاجها المدرسة . . وورد في الجواب كلمة « نأسف » ولم يفهم الاستاذ المدير معنى الكلمة .

ـ ربما كان ذلك سبباً في استعارته « المنجد » مني .

ـ نعم . لقد وجد أن معناها : الحزن ، فغضب المدير وأرسل بكتاب عنيف آخر . حينئذ . . ورد كتاب جديد ساخر اليه . .

ـ كيف عرفت هذا ؟

ـ فاجأني الكتاب الأخير حينما كنت أقلب أوراقاً عادية مهملة على المكتبة .



ضحكت . ارتاح هو . بدا ذلك في حركاته عندما راح يتمطى على المقعد ويعيد الحكاية مراراً وأنا احاول انقاذ نفسي .

* * *

في الفرص التي تلي الدروس والأحاديث ، كنت احاول الوصول الى نقطة ما ، وهي أنه لابد من أن مصيبته قدحطت على هامات الطلبة وسكان القرية . لقد بدأت أتحول الى اتجاه آخر ، واعيش المآسي التي تفضحها الوجوه . .

كانت المدرسة بلا سور ، وكان ذلك كاف لتحويل حديقتها المتواضعة جداً والخالية من كل شيء إلا من بعض البقول والابصال التي نستعملها

نحن والطلبة والمواشي الى ساحة تشيع فيه حرية التجول للبشر والحيوانات وما يتبعها من قذارات .

لقد كنت أجد ضالتي في القرويين الذين أتحدث اليهـم

– من جاء في السيارة امس ؟ « وغالباً مالاتصلنا سيارة عدا ما يعود الشيخ منها ، وقد احصيت حتى الآن ثلاثاً » .

أو

– كيف صحتك .

أو

– ابنك لايطالع دروسه . لماذا لاتشتري له دفاتر . .

ولقد كنت أعرف ما الذي يمكن أن يقولوه أو يخفوه في صمت موجع، وعندئذ أجد سبيلاً لأن اغوص في اعماقهم .

– ما فائدة المدرسة عنـدما يكون هناك جوع ومرض والى جانبه ثراء بالغ .

ويصعب عليّ توصيل افكاري ، اللغة عاجزة . أكرر . ابسط ظلي وحركاتي وصوتي لأحقق ما اريد .

صحيح أن تلميذاً من الصف السادس كان يترجم أقوالي في بعض الأحيان، ولكنني كنت اخلص الى نتيجة أن الجميع يمارسون نوعاً من الضغط على انفسهم في الصمت .

الجوع يقتلهم ، التمرد يشردهم . في الشتاء البارد تتيبس جلودهم في حرائة

الأرض وتوزيع البذور فيها ، وصيفاً كانوا حفاة في الحقول حيث يغرس الأرز المغمور بالمياه أشهراً .. وبين الفصول يستمر الرعي وبناء بيوت طينية خاصة بالشيخ حيث يوزعها كل في غرفة مستقلة على من يجد فيهم الكفاءة والاخلاص، بينما يشمخ قصره الاسمنتي العتيد يطاول الجبال المحيطة به في كبريائها ومتانة تكوينها .. لقد كان أشبه بالقلعة الحصينة المتجددة دائماً وهي تتسلط على الزمن وتحاول قهره .

قال لي واحد منهم :

ـ نحن الذين بنينا كل حجر في هذا القصر ، ونصبنا الشيخ ، اقسمنا به .. حيث كان في نظرنا هو القوة والتقوى ولا من يدانيه .. نقبل قدميه ، نفرش له سجادة الصلاة ، نركع حينما نقدم كوباً من الماء ، نساعده في الاغتسال ، يُسمي لنا أطفالنا ، يشترك في الزواج وله القسط الأعظم من المشورة والمال الذي لايوجد أصلاً إلا في صورة بندقية نحتفظ بها .

وكل هذا كنت أشهده . اذكر أن مدير المدرسة طلب اليّ في لحظة مباشرتي التعليم ان ازور الشيخ واقبل يديه ، وحاولت أن اجد تبريراً لذلك .. سألت :

ـ لماذا ؟

ـ تقاليد المجتمع القروي تقتضي ذلك .. يجب أن نحترم التقاليد .

ـ ولكنني احمل تقاليدي أيضاً .. أرفض أن أقبل يد أي انسان .

ـ انت فرد وهم كثرة .

- هذا لايبرر ان اسير في خطأ المجموع ما دمت اعرف الصواب .

- أنت تهين الشيخ والقرية .

- كمقابل لعدم اهانة نفسي .. اطلق رأيك كما تريد .

وذهب غاضباً ، ومن يومها عرفت انني واياه على طرفي نقيض ، وبيننا ثالث هو المعلم الذي يتعلق بالهزية والسخرية والصداقة على حد سواء .

قبلت زيارة الى الشيخ . صافحته . الكل كان يقف . احسست بغضب حولي ، ولكنه غضب يقرب الى الارتياح، وهوما امكنني قراءته في العيون .. ربما هذههي المرة الأولى التي يحس فيها الجميع، وبضمنهم الشيخ ، بهذا العصيان .. وبررت الموقف .

- انني غريب عنكم وأرجو أن أقوم بواجبي تجاه ابنائكم على خيروجه .

كنت أحاول أن يكون حديثي للحاضرين جميعاً بدون تحديد لشخص الشيخ .



وترجم زميلي حديثي القصير بكلمات كردية طويلة وضخمة .وعرفت انه يثير نوعاً من اساليب الطاعة والولاء للرجل الذي تهلل وجهه بعد أن سلبته حركاتي الارتياح والغضب .

كان مجلساً واسعاً ، في الزاوية يجلس الشيخ على فراش مرتفع متكئاً على وسادة واسعة بلون أخضر داكن ، ملابسه نظيفة ونقية ، لحيته قاتمة محددة وكذلك شاربه الاصفر المقصوص بعنـــاية . أما شعر رأسه فلم اتبينه لأن كوفية سوداء ملفوفة قد حجبت نصف الجبهة واخفت الرأس وشكل الجمجمة عموماً .

وجهه يختلف عن وجوه جميع الناس هنا في المجلس والقرية . عيناه زرقاوان فيهما شائبة من حمرة خفيفة ، بينما كل الوجوه ضعيفة خشنة مستسلمة وفي تقاطيعها موالات من الصمت .

حدق في وجهي باهتمام حتى انني احسست بخجل عارم ، اردت انقاذ نفسي من هذا الخجل ، فلم افلح . قال :

– مرحبا فيمن خرمه ..

وعلمت ان كلماته تعني الترحيب والقرابة . ذلك ماقاله لي زميلي الجالس الى جانبي بوقار تام و كذلك المدير الخاشع في حضرة الشيخ .

صحيح اني قد شاهدت مجالس كبيرة ومحترمة ، لكنني لم اعهد هذا الصمت في مثل المكان .



ولم اكتشف هذا الخضوع والخوف والتقديس لأنسان مثلما وجدته هنا .

خمسة من الرجال بجباههم الشم وعضلاتهم البارزة وقد انحنوا بصورة دائمة . هه ، هه ... يجب أن أصدق أن هذا يحدث الآن أمامي . الشفاه تطبع قبلة أثر أخرى على قدم الشيخ ثم تجلس منحوتة بلا حراك . عند ئذ أرسل المدير لي ابتسامة ارتياح ، و كأنما أراد أن يقول لي : « انظر . إن كل شيء يجري أمامك ، ولست احسن من هؤلاء » .

شربت الشاي ، واحصيت عشرة فناجين من القهوة

اشرت للزميلين بالرحيل ولم أجد فيهما الرغبة لذلك . نهضت وقمت بشارة من يدي اليمنى . وكنت اعني التحية للجميع ، وعلمت بعدئذ ان ذلك محظور فالتحية للشيخ وحده ، وايضاً .. لايجوز ارتداء الملابس الكردية ذات اللون القاتم وموديل الخياطة الخاص الذي يرتديه الشيخ بالنسبة للآخرين .

صباح اليوم التالي أزدهرت شمس القرية . انبعث بخار من سقف البيوت الطينية . في الفضاء حلقت عصافير عديدة وتعرفت على حجلين فيها .. كنت أحب طائر الحجـــل بمنظره الجميل وصوته الرخيم ومنيت نفسي في اصطياد زوجين منه .

بكر المدير بالحضور بينما كان زميلي يرقد في الغرفة جافاً كالموت ، وبدأت بالتحية على غير عادتي .

ـ غضب الشيخ منك أمس . ونحن ايضاً .

ـ الزيارة الاولى يجب أن تكون قصيرة دائماً ، طلبت اليكما الاختصار منذ البداية ، رفضتما .. فنهضت .

ـ ولكنها كانت الفرصة الثمينة لك في كسب ثقة الشيخ بك .

ـ انا لاادين لأحد بشيء . الثقة لاتطلب ولكنها تمنح .

. . .

في اعقاب شهر لم اكحل في عينيه براقي البكر ، فض المدير ورقة ناصعة البياض شفافة عليها حروف مطبعية ناعمة ، قرأت فيها مراراً مادون فيها وأمر اداري بنقل السيد ... »

معنى ذلك انني مخالف وغير مرغوب فيه . هذا مي ء ، وتعتصر انفاسي اثقال كثيرة فلا استطيع أن استل منها الشهيق والزفير . شعرت بحب الجميع وتآلفي معهم ، وانصهاري مع الطبيعة والعيون الوادعة في استدارات الوجوه الصغيرة . لقد كدت اجد فرصة دائمة لأن يكون البشر هنـــا اصدقائي ، ولأقترب من انفسهم ومن العالم الذليل الذي يعيشونه بسلام . . ولكنه اسعدني انني تركت أثراً . فالوداع . . وابتسامات الحب الاخيرة كانت تقول لي هذا ، وفي لمسات الايادي الخشنة وجدت شيئاً خاصاً من النعومة لم اتبينه من قبل . كان كل شيء يتحرك حولي . . الناس والطبيعة والتلاميذ . . ويقرب لي اغنيات الغد . . بينما يتراءى لي « فراش » المدرسة وهو يشد لوازمي الخاصة ، ولأول مرة أحسست بشفقة عارمة تجتاحني نحوه . وكذلك بادلته والمدير وزميلي المعلم كلمات من حرارة الفؤاد ووده . كل شيء صفحت عنه ، لكن الشيء الذي تركته بانتظار ان يأتيني خبره يوماً ان الفرص قادمة لابد لتعصف بشيخ القرية الذي لم احتمل رؤية وجهه . . .



تركت القرية على حمار هزيل اجتـــاز بي منطقة كثيرة الوحول وأنا ارفع يدي بالتحية ، واعياً انني لم اترك أحداً دون وداع عدا الشيخ الذي كان يرتقب مني الخضوع . وفي الطريق الصعب الاجتياز تفتحت في اعماقي مليون زهرة .

# ماورر
# وتجربة الحركة والفعل

بدر الدين عرودكي



خرج الربيع الرسّام
بلوحة ألوانه إلى الشوارع
ولوّن الأحجار الملساء
بالأحمر والأخضر
وترك السكة للترام
وجلس في منتصف الغابة
وظل حتى عشى الدار

بالأخضر ثم بالأزرق .

وبعد كل هذا ، ذهب إلى الماء الملطّخ بالزهر

ورسم نفسه ، تماماً كما يرى نفسه :

ضائعاً وبريئاً ومغروراً ...

وأحس كيف بدأت شفافيته تزهر

• • •

كنت أحاول أن أتخيل ، وأنا أقلب بين يديّ قصائد الشاعر الألماني العظيم « جيورج ماورر » ، ذلك الفتى النحيل الذي كانه ، قبل نصف قرن تقريباً ، ربيعاً يبحث عن ألوان السعادة في الأرض فلا يجدها إلا في السماء : يضم كتاب « الساعات » لراينر ماريا ريلكه إلى صدره ، ويرتضي لنفسه هذا المصير : المنفى في الروح بعد أن صدمته الغربة في الأرض .

كنت أريد في الحقيقة أن أنفذ إلى عالم هذا الشاعر الذي لم أكن أعرف عنه شيئاً قبل لقائي به ، سوى أن صديقاً في دمشق نبهني قبيل السفر :

– حاول أن تقابل « ماورر » . إنه أعظم شاعر ألماني ..

ولقد فعلت . وكان في برنامج الزيارة [1] الذي أعد لنا ساعات نقضيها مع « ماورر » في منزله بمدينة « لايبزغ » . ولكي لا أصافحه وأنا أجهل عنه كل شيء ، حاولت الحصول على بعض أشعاره . وبادرني الصديق الدكتور عادل قره شولي ، الذي كان تلميذاً له في معهد الأدب بلايبزغ، وصديقاً له مقرباً ، بعدد من القصائد التي سبق له أن ترجمها عن الألمانية ، وببعض المعلومات التي تتحدث عن حياته بخطوط عريضة . وقبل أن أقرأ عنه ، قرأته :

(١) زيارة وفد اتحاد الكتاب العرب بدمشق إلى ألمانيا الديموقراطية ، وقد تمت بين ٢٨/١١/٩٧٠ و ١٢/١٢/٩٧٠ .

« لسنا من خلق العالم
ولكن اللقاء بعه هو ملك لنا
ولم أخلف أنا الصديقة
ولكن حبها ملك لي
طالما استحققت الحب
وحسب ميزان قلبي
ستكشف لي الصديقة ذاتها ! ... »

ما هو ملك لنا ! . . ذلك مقطع من القصيدة ، قفزت عيناي بعد أن أنهيته إلى مقطع آخر فجأة ، كأنما اجتذبها فيه عطر غريب :

« لسوف نستبدل الحب بالعمل
وساح الشرف سيصبح حقلاً للفلاح :
إن حكاية أيامنا
لا تقل روعة
عن جميع أساطير الأقدمين
ولكن لم يكن دون جدوى : ذلك التاريخ
ولا ضجيج المعارك المنصرمة .
فلقد صرنا نحن
وها هي ذي العصور جميعاً تمد إلينا الآن
على أطباق دموية يتصاعد منها الدخان
إمكانية الانسان على التغلب ..

إن حزمة الرماح في صدورنا
تفتح دروب الحرية .. » .

وبجهد لا طائل من ورائه ، كنت أحاول أن أتخيل الأبعاد التي تقدمها تلك الأبيات في لغتها الأصلية ، يفقد الشعر معناه ما إن يترجم إلى لغة أخرى . يجرد من أبعاده وإيحاءاته ، ويمنح ، غصباً ، أبعاداً ومرامي أخرى تخص اللغة الجديدة وتنتمي إلى تاريخها . كنت في ذلك أشبه بمن يبحث عن ابتسامة ( الجوكندا ) السحرية في لوحة مزيفة . ومع ذلك ، فوراء ما كنت أقرأه بلغتي ، شاعر يخاطبني ، يخاطب الإنسان فيّ . ولم يكن صعباً أن أكتشف ذلك على كل حال . فوراء الكلمات والمسافات ، يبقى الشاعر العظيم ومضاً لا تقف دونه كل الأسوار .

* * *

في الدور الثاني من بناء قديم يقع في حي « Mencke str » بلايبزغ ، يسكن جيورج ماورر . عندما استقبلنا ، تعلقت عيناي بقامته الضخمة ، وتذكرت : ستون عاماً . رحلة طويلة ، لا يستطيع رحالو البحار والمحيطات أن يقوموا بها بين الداخل والخارج ، بين الذات والواقع ، بين السماء والأرض ، وفوجئت كذلك : حيوية تتحدى وهن الأعضاء ، وشباب يتجاوز الشيخوخة الجسد .

وكنت قد طلبت إلى الصديق عادل قره شولي أن يتحدث مع ماورر عن مقابلة أجريها معه لأقدمه إلى القارىء العربي . ولكن لم يضمن لي موافقته على ذلك سلفاً . غير أنه فاجأني ، وقد استبد بنا الحديث معه فترة طويلة :

- ألا تريد أن تجري مقابلتك ؟ .

قلت :

– نعم . ولكن استغراقي في سماعه الآن ، وفي قراءة شعره بالأمس ، أفقدني القدرة على تهيئة الأسئلة المناسبة ! .

وضحك ماورر : إنني أنا الذي لن يعرف إذا كان بوسعه أن يجيب عن أسئلتك ! .

وفكرت : مادام حديثنا معه حتى الآن عن كل شيء إلا عنه ، فلم لا أحول الحديث ، تحت ستار المقابلة ، فاجعله يتحدث عن نفسه ؟! .

كنت أعرف أنه ولد في عام ١٩٠٧ في منطقة ( ترنسلفانيا ) برومانيا حيث كانت تقطن منذ العصور الوسطى أقلية ألمانية احتفظت بتقليدها . وأنه في التاسعة عشرة من عمره قد رحل إلى ألمانيا التي كان يريد أن ينهل فيها من تراثه الكلاسيكي الذي أعجب به على مقاعد الدرس ، وأنه لم يستطع ، هناك ، أن يقيم علاقة مع الواقع الرأسمالي الذي صدمه . فعكف على ( ريلكه ) علّه يجد فيه نفسه الضائعة الحائرة . إلا أنه لم يجد فيه ملاذه النهائي . فعاش ( زمن العنف ) – كما يسميه – بين نهاية الحرب العالمية الأولى ونهاية الحرب العالمية الثانية بكل وجوده . ذلك أن تلك السنوات ، بآفيها ، قد نالت الجميع ، حتى أولئك الذين حاولوا اللجوء إلى المنفى الروحي ، أو العالم الداخلي الذي دعا إليه ( ريلكه )

إلا أن رحلة البحث لم يوقفها اليأس الذي دبّ ، تحت وطأة العنف ، في أوصال الناس جميعاً إذ ذاك . وهكذا ، فإن أواخر الاربعينات بالنسبة لماورر ، كانت بداية حياة جديدة تختلف كلياً عن حياته السابقة خلال أربعين عاماً : في علاقته مع نفسه ومع شعره وفي شعره .

سكت صوت « الأصوات الخالدة »[1] ، وانبثق « وعي »[2] الانطلاقة الجديدة :

« خرج الربيع الرسام
بلوحة ألوانه إلى الشوارع » .

وهاهي النوافذ تفتح على العالم مرة أخرى ، لتبدو الحياة بعد سنوات الظلمة والخراب واعدة ومضيئة . وهاهي الخطوات الأولى في رحلة الانسجام بينه وبين نفسه ، تلك التي ما كان ممكناً لها أن تبدأ مالم تكن في الوقت ذاته رحلة الانسجام بينه وبين العالم والآخرين .

عن بداية هذه الرحلة ، عندما كان في العشرين من عمره ، برفقة ( ريلكه ) ، بدأ ماورو حديثه :

« كان ( ريلكه ) انقاذاً بالنسبة لي عند مجيئي إلى ألمانيا الرأسمالية التي كانت اكثر تطوراً من رومانيا شبه الاقطاعية عام ١٩٢٦ - ١٩٢٧ . كنت في العشرين من عمري ولم أكن أحب ( ريلكه ) ، غير أنني وجــدت نفسي فجأة عاجزاً عن فهم العالم المحيط بي ، عاجزاً عن معرفة الكيفية التي يمكن للانسان أن يتصرف بها في هذا العالم . ولم أكن قد سمعت بالماركسية ، سوى أنني سمعت اسم ( ماركس ) ذات مرة في رومانيا . ولذلك فقد كان جميلاً أن أجد عند ( ريلكه ) فكرة العودة إلى الذات لخلق عالم متجانس . وعلى الرغم من أنني كنت أتوق إلى التجانس في العالم الخارجي ، إلا أنني لم أجده في العالم الذي جئت إليه ( ألمانيا الرأسمالية ) . مع من كان بوسعي أن أتحدث ؟ . لم أجد

---

(١) مجموعته الشعرية الأولى .

(٢) مجموعته الشعرية التي تؤرخ تحرره من موقفه المثالي الذاتي .

أحداً سوى الله ، عبر كتاب ( الساعات ) لريلكه . وكان ( الله ) بالنسبة لي هو ( الأنا ) الثانية . ولذلك فقد كنت أتفاهم معه بشكل رائع . حاولت أن أذهب إلى الغابات لأتحدث مع الأشجار والعصافير ، لكنني وجدت أن هذه الأشياء اكبر مني . ولا أدري اذا كنت تعرف ما قاله ( ريلكه ) ذات يوم ، عندما وقف أمام شجرة مذهولاً : إن هذه الشجرة اكبر مني بكثير !؟ » .

قلت : لا . ولكنني قرأت قولاً مشابهاً على ما أذكر لمتصوف اسلامي هو ( محي الدين بن عربي ) .

وتابع ماورر : « المشكلة الرئيسية التي كنت أحس بها آنذاك كانت تتمثل في أنني لم اكن أشعر بنفسي واقعاً حسياً تجاه هذه الأشياء .

« أما بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد شعرت ، نتيجة انهزام الفاشية ، بأنه يمكن للانسان أن يفعل شيئاً في هذا العالم . ولذلك وصلت إلى النتيجة التالية : ألا يعتبر الانسان نفسه خارجاً عن الواقع ، بل جزءاً من هذا الواقع . ولذلك فإنني لم أجد نفسي في ( عزرا باوند ) لأنه يقول كذلك في ( الأناشيد ) مامعناه : « إن النملة أقوى مني » ، إذ أنني استطعت الوقوف موقفاً نقدياً تجاه كل من ( عزرا باوند ) و ( ت . س . إليوت ) ، لأن موقفهما ذكرني بموقف ( ريلكه ) .

« ذلك أنني كنت قد اطلعت على أعمال كارل ماركس بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ، وشعرت بنفسي أنني أقوى من النملة فعلاً ، قادراً ، بسبب ذلك ، على تبادل التأثر والتأثير على المستوى الاجتماعي ، الأمر الذي لم اكن قادراً على الشعور بامكان تحقيقه من قبل . لابل إنني وجدت نفسي قادراً على متابعةحبي للكلاسيكيين بشكل حقيقي . إن جذور كل حياة هي ( الفعالية )

أو ( الفعل ) ، ويمكن التعبير عن هذا في الشعر من الناحية الشكلية عن طريق استخدام الأفعال ( التعبيريون مثلاً لا يستخدمون الأفعال ، وانما يقتصرون على الاسم والصفة . ذلك أنهم كانوا يحلمون بشيء ما ، ولكنهم لم يكونوا « يفعلون » من أجل الوصول إلى هذا الشيء . ) . لم أكن أريد أن اكتب قصائد انطباعية فحسب . مثلاً اذا نظرنا إلى أعمال بيكاسو التكعيبية نرى أنها تختلف عن اللوحات الانطباعية من حيث حيويتها وحركتها . ولقد أعجبت بهذا ، ولم أكن أريد أن انظر إلى العالم من خلال الشبكية فقط ، وانما كنت أريد أن أدخل هذا العالم . لست متحجراً ، ولست – كذلك – ضد القصائد التي تعتمد على الشبكية . ولقد لاحظت أن الشعراء الكلاسيكيين ، منذ الاغريق ، كانوا دائماً فعالين ، وتنعكس هذه الفعالية على ما يكتبونه . ففي « الكوميديا الالهية » لدانتي مثلاً نجد أن المكان هو في الحقيقة مكان ميتافيزيقي ، إلا أن دانتي يدخل هذا العالم الميتافيزيقي حتى النهاية .

ومن جهة أخرى فالصحة تعني الفعل . إن كل طبيب يشهد على أن الانسان صحيح الجسم يستطيع أن يتحرك وأن يمشي ، أي يستطيع أن يكون فعالاً ، وإلا فان عليه أن يستلقي !.. ومن هنا ، فانني المرة الأولى بعد الحرب العالمية أحسست بشكل واع بقدرتي على أن أمشي وأن اتحرك على الرغم من أنني لم اكن أستطيع المشي بشكل جيد .. هذه التجربة لم يسبق لي أن عشتها من قبل أبداً بشكل واع كما عشتها في ذلك الوقت » .

وسألته : أي شيء في الماركسية استطاع أن يؤثر فيك اكثر من غيره ، ويجعلك من ثم تنعطف نحو هذا الطريق الجديد ؟.

قال : « لقد توصلت إلى النتيجة التي حدثتك عنها اثناء قراءتي لماركس

الفيلسوف الذي يقول إن كل شيء في تغير وحركة ، وإن كل ثانية تختلف عن الثانية التي تليها . ولذلك فقد وجدتني أختلف مع ( باوند ) الذي يقول إن الأشياء تدور وتعود . وباختصار ، فلقد لاحظت أن الماركسية تمكنت من تفهم جوهر العمل . لاشك أن الانسان كان يعمل منذ آلاف السنين . ولكن ( العمل ) لم يكن في يوم من الأيام مركز النظرة الفلسفية والأساس فيهما كما هو اليوم في الماركسية . كان الانسان يعمل دوماً ، غير أن العمل لم يكن هو الجوهر ، بل إن هناك لوحات فرعونية تصور العمل ، ومع ذلك فليست هي اللوحات الشهيرة . إن اللوحات الشهيرة هي التي كانت تمثل الاله ، أي فرعون !.»

وصمت ماورر . وكان ثمة سؤال ينبثق من لحظة الصمت التي انتهى إليها حديثه ، من لحظة الحاضر الذي يعيشه كشاعر كان يبحث عن الوسيلة المثلى لتحقيق الانسجام مع الذات ومع الآخر ، ثم استقر به المطاف في المجتمع الاشتراكي الجديد.. فماذا يفعل الشعراء الشباب في هذا المجتمع ؟.



وانطلق السؤال من ثم صوتاً مسموعاً : تجربة البحث عن الحقيقة والوصول إليها ، هل هي تجربة لا بد منها لكل شاعر ؟ وعندما يبدأ شاعر ما طريقه منطلقاً من الحقيقة التي انتهيت اليها ، ألا يشكل هذا نوعاً من الابتعاد عن الرؤية العميقة الصلبة للكون والحياة والانسان ؟.

وأطرق ماورر ثانية ، ثم أجاب :

«إن الشعراء الذين يولدون وينشأون في المجتمع الاشتراكي تقدم لهم عادة خلاصة التجارب السابقة وهم لا يعرفون في أغلب الأحيان كيف توصل من سبقهم الى هذه النتائج وتلك الخلاصات. وأعتقد أن الانسان إذا توقف عند معرفة هذه النتائج وتلك الخلاصات فحسب ، فانه لن يكون بوسعه أن يفعل شيئاً ذا قيمة . يجب على هؤلاء أن يعملوا كل يوم لمعرفة الطريق التي سلكت للوصول الى هذه النتائج .»

– ما هو الهدف الآخر الذي يناضل الشعراء الشباب الآن من اجله في المانيا الديمقراطية ، أولئك الذين انطلقوا من الحقيقة التي توصلت اليها ؟. هل يناضلون نضالاً مريراً – كما فعلت – للوصول الى حقيقة اخرى ، ما دامت الظروف قد تغيرت ،وغيرت المهمات تبعاً لذلك ؟.

قال ماورر :

« انني لا أعتقد أنهم يبحثون عن حقيقة اخرى . فثمة أشياء كثيرة لاتعجبهم . هناك أشياء جيدة ، وهناك أشياء غير جيدة . ولست أعتقد بصواب الرأي القائل : هنا الجنة وهناك الجحيم ، على الرغم من انتشار هذا الرأي عندنا . لاشك أن ثمة بعض الشعراء الذين اصيبوا ويصابون بخيبة الأمل ، لأنهم يملكون تصورات اخرى مختلفة عن الحياة والمجتمع . وفي رأيي ، أن على هؤلاء الشعراء أن يراقبوا الواقع جيداً ، وأن يتحدثوا بكل بساطة عن الأشياء التي لاتعجبهم . إلا أنني أطالبهم في الوقت نفسه ، أو أطلب اليهم أن يطالبوا أنفسهم بما يطالبوا به الآخرين : أن يعملوا من أجل ما يريدونه ، من أجل ما يريدون تغييره . كثيرون هم الذين يقولون : هذا جيد ، وهذا سيء . لكن أحداً من هؤلاء لايفعل شيئاً ، سوى الحكم ، من أجل التغيير !.. » .

ومرة اخرى ، تداعت الى خاطري القصائد التي قرأتها له قبل ليلة .. « مقاطع من افكار الحب » :

يسير الحب حاملاً عصاه السحرية
فوق لحم الأرض المشتاق
وحينما يصل ، تفتح الورود افواهها
وعيونها ذات الأهداب المرتعشة
ويقف على جسر قوس قزح

وحول فمه تقف الأسماك النهرية
فاتحة ثغورها كما لو كانت تنتظر قطعة خبز
وترفرف السمكة الذهبية كمروحة حمراء
ويهطل المطر امامه وتمتلىء الساقية
وتمسح الصفصافات الهرمة بأغصانها ذلك التدفق البني
وتنادي اعشاب المنحدر بخضرتها الصارخة
كل ما في الخفاء يظهر للعيان تحت اغواء الحب
وتحط فكرة الكون كله على تكوّر النهد !.

. . .

تجذبين قلبي الى كل مكان
دماغي ينبض كالعضلة الحمراء
أوراد هي أفكاري
والمعادلات عطور من الغاز
اجذبيني أبداً أعمق فأعمق
إلى مشتل الواقع
حيث أنام منتشياً وأموت ...

. . .

كالنجمات تشرق في ذواتنا
يدفع الشوق الشوارع المتلألئة إلى المدينة
ويجعل شعرُكِ الوسادةَ أكثر تألقاً الآن
في الغرفة الغسقية

وعندما يستلقي أحدنا جانب الآخر برقة
يتنفس الحس كلاً .. ويحس الكون كله
هدوء عناقنا ..

وتذكرت أنه ناقد إلى جانب كونه شاعراً . فهو يحمل لقب (بروفسور) فخرية ، وقد درّس في معهد الأدب بلايبزغ مادة الشعر منذ عام ١٩٥٧ ، حيث تخرج عدد كبير من الشعراء الشباب المعروفين في ألمانيا الديمقراطية كـ ( هلموت برايسلر ) و ( فرنز لندن ) و ( راينر ساره كيرش ) . فسألته بوصفه ناقداً ، عما اذا كان يملك أن يضع شعره ضمن اتجاه الواقعية الاشتراكية ، وعما اذا كانت هنالك صيغة نقدية محددة للواقعية الاشتراكية ؟.

قال : « أعتقد أن شعري يتحرك باتجاه الواقعية الاشتراكية . أما فيما يتعلق بالشق الثاني من سؤالك ، فانت تدرك ولا شك أن علم الجمال لايمكن أن ينشأ إلا بعد أن توجد أعمال فنية كافية . لم يكتب أرسطو كتابه الأساسي في علم الجمال : « في الشعر » إلا بعد أن كانت بين يديه أعمال اسخيلوس وسوفوكليس ويوربيدس المسرحية وملحمة هوميروس الشعرية . ولقد قامت محاولات نقدية كثيرة لوضع أسس علم جمال ماركسي . إلا أن علم الجمال لايتكون تماماً إلا بعد اكتمال مرحلة معينة . ثمة ولا شك منهج يوضح الطريق إلى علم جمال ماركسي . لقد قرأ ( غوته ) الفيلسوف الالماني ( كانط ) وتأثر به من خلال الفكرة التالية : « إن الطبيعة تسير حسب قوانين معينة » ولكنها حرة » — أي حرة ضمن هذه القوانين — . على الانسان اذن أن يأخذ مادته من الواقع ذاته ، لا من القواعد الموضوعة له . إلا أن عليه أن يكون على معرفة بالقوانين التي يسير الواقع بحسبها . » .

# الفيلفس (١)

عرض : ظافر عبد الواحد



يعتبر سقراط آخر السفسطائيين وأمهرهم !

كيف ، وقد لقي مصرعه على أيديهم ؟

اتهموه بافساد الشبيبة ، التشكيك بالآلهة .

لعله قوض ديمقراطية أثينا ، التي كان السفسطائيون يتلاعبون بها تلاعبهم بالألفاظ ليبرهنوا على قدرتهم الدفاع عن القضية وضدها .

أما سقراط فقد انطلق من بعض المسلمات على لسان ديوتيما عرافة معبد دلفي ، معتمداً على مهارة السفسطائيين للوصول إلى مثله .

---

(١) PLATON - Oeuvres Completes - Tom IX - 2 Partie - PHILÈBE
Texte établi ettraduit par AUUSTE DIÈS-Paris Les Belles Letres

افلاطون ـ الفيلفس ـ تحقيق وتقديم أوغست دييس ـ تعريب الأب فؤاد جرجي بربارة ـ منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٧٠

وهكذا كان آخر السفسطائيين ، لأنه طوى آخر صفحة من صفحاتهم وأصبح أبا الفلسفة .

وكان أمهرهم ، فقد اتبع أرقى أساليبهم للقضاء على مغالطاتهم . لو شاء لدافع عن القضية وضدها ، ولكنه التزم .

حين نفى المغالطون الحركة بمحاكاتهم ، لم يجد هيرقليطس دفاعاً عن الحركة غير الحركة . وما أوهى هذه الحجة أمام المثاليين ، إذا اعتبروا الحركة وهماً . لكن سقراط جمع ديالكتيك هير قليطس ، إلى قياس المغالطين . فاذا عجز هير قليطس عن إشهاد المغالطين على مايراه حقاً ، فقد برهن سقراط بالقياس على ماراه حقاً .

وأصبح سقراط أبا الفلسفة ، فقد استوعب شتات الحكمة الاغريقية ، التي أصر فيثاغورس على تسميتها ( فيل سفيَّة ) أي ( صداقة الحكمة ) . وكانت هذه الفلسفة وريثة المحاولات الشرقية من كلدانية وفارسية وهندية وصينيـــة . ورأينا كيف جمع سقراط ديالكتيك هير قليطس ، إلى قياس المغالطين .

أشار أحد رسل المسيحية إلى الفرق بين السامية واليونان ، فاليونان يسألون حكمة والساميون « يطلبون آية[1] » .

ولو رجعنا إلى القاموس المحيط لقرأنا « والحكمة - بالكسر - العدل والعلم والحلم والنبوة والقرآن والانجيل[2] » . و « الآية العلامة والشخص ، وزنها فَعَلَة بالفتح أو فَعَلَة محركة أو فاعلة ج آيات و آي وآياي جج آياه والعبرة

---

(١) زكي الأرسوزي بعث الأمة العربية ورسالتها الى العالم - رسالتا الفلسفة والأخلاق - منشورات دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر - دمشق ١٩٥٤ ص ٧٤

(٢) مجد الدين الفيروزاباذي - القاموس المحيط - الجزء الرابع - الطبعة الخامسة منشورات المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة ص ٩٨ .

ج آي والأمارة ، ومن القرآن كلام متصل إلى انقطاعه، وآية مما يضاف إلى الفعل لقرب معناها من معنى الوقت [1] » . فالحكمة التي يطلبها اليونان هي العلم ، والآية التي يطلبها الساميون هي العلامة . العلم هو المعرفة التحليلية ، والعلامة تدل على الشيء دلالة مباشرة. وهذا ماجعل الأرسوزي يشرح الاختلاف بين الاتجاهين اليوناني والسامي بقوله : « والاختلاف بين هذين الاتجاهين يظهر في الاختلاف بين السنة وبين الحكمة الأخلاقية التي ينهج فيها العقل منهج العلم في دراسة الطبيعة [2] » . واسم السفسطائيين مشتق من الحكمة ( سفية ) ، فقد كان اليونان يطلبون الحكمة ، ولكن تلقب المفكرين الاغريق بالحكماء ( السفسطائيين ) جعل كلمة السفسطائيين ( الحكماء ) تعني المغالطة ، حين انحدر بعضهم فعلاً إلى المغالطة ، وكان بعد نظر من فيثاغورس تخصيص الحكمة بالإله ، وحسب البشر صداقة الحكمة . وبرهان هيرقليطس على الحركة بالحركة ، يجعله من طلاب الآيات . وهو بحكم اقامته في آسيا، أقرب الى الساميين منه الى اليونان . فالتمييز بين الفكر السامي والفكر اليوناني ، ليس تمييزاً عنصرياً بل جغرافياً . ولعل للبيئة والاتصال بالشعوب أثراً في الفكر أكبر من أثر العرق ، لاسيما في المجتمعات المفتوحة التي ترفض صفاء العرق . ألم تكن الشعوب التي تعيش في شرق حوض البحر الأبيض المتوسط من هذا الطراز ؟ ألم يكن اليونان - على أرستقراطيتهم - مفتوحين على البحر؟ ألم يقرأ على أحد الآثار في سورية مامعناه : لماذا تعجب أيها الغريب لأنك لست من سورية ، إننا نعيش في وطن واحد هو العالم !

ولإبراهيم الخليل يعني اسمه في إحدى اللغات الهندية الأوربية ( أخـــا

---

(١) القاموس المحيط ٣٠٠ .

(٢) رسالتنا الفلسفة والأخلاق ص ٧٤ .

الصخر ) ، ذلك أنه قذف في النار بالمنجنيق كما يقذف الصخر يوم كانت النار برداً وسلاماً عليه . ومع ذلك ، فهو من آباء السامية لهجرته مع عشيرته مما بين النهرين إلى سورية ، حيث كان يتفرغ لقومه بعد حلب بقرته الشهباء . وينتظره المتقاضون حتى يقال : « حلب الشهباء » ، وهكذا قامت مدينة حلب الشهباء في منازله .

**« وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر اتتخذ أصناماً آلهة ؟ إني اراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والأرض ليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، قال هذا ربي ، فلما افل قال لا احب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال : هذا ربي ، فلما افل قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربي ، هذا اكبر ، فلما افلت قال : يا قوم إني بريء مما تشركون اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما انا من المشركين »[1]**



هل كان إبراهيم يطلب حكمة ، أم آية ؟

رأى إبراهيم آية على ملكوت السماوات والأرض ، فراح يبحث عن ربه خالق السماوات والأرض . واتخذ القياس ، طريقة الحكمة .

الرب خالق

الخالق ليس مخلوقاً

الإنسان مخلوق

---

(١) سورة الأنعام .

الإنسان يصنع الأصنام

الأصنام ليست خالقة

الأصنام ليست آلهة

فالإله أكمل من الصنم

فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، ظنه ربه فهو أكمل من الصنم، يهديه في الليل بنوره . فلما أفل كفر به ، فقوته لاتدوم . ورأى القمر أكبر من الكوكب وأشد نوراً ، فآمن به حتى أفل . ورأى الشمس أكبر من القمر وأشد نوراً ، فآمن بها . ولما أفلت ، اكتفى بآية وجود الله .

لم يخلف سقراط أثراً مكتوباً ، بل عرفناه عن طريق أفلاطون الذي ركز على ديالكتيكه الصوفي . أما أرسطو فقد اهتم بقياسه . وشهدت القرون الوسطى مدرستين : أفلاطونية ( الفارابي في الشرق وأوغسطين في الغرب ) وأرسطية ( ابن رشد في الأندلس والأكويني في بلاد الأفرنج ) . واختار هيجل الديالكتيك للتعبير عن تجربته الصوفية . ورأى ماركس الديالكتيك واقفاً على رأسه ، فقلبه رأساً على عقب . وأخذ لينين على المدرسيين إفقادهم الفلسفة الأرسطية مافيها من حيوية ، وكأنه يعترف لأرسطو بإبداع فوق القياس ، ويخشى على ديالكتيك ماركس من التحنيط فيتحول تركيب الأطروحة والطباق إلى تلاعب بالألفاظ . ماالذي يعصم المنطق الرمزي من الخطأ ؟ أ = ب ، ب = حـ ، حـ = د ∴ ا = د .

إنسان = فان . فان = سقراط ، سقراط = فيلسوف ∴ إنسان = فيلسوف !

وكما كانت فلسفة سقراط وليدة زواج الفلسفات السابقة ، فهو أبو الفلسفة الحديثة بما فيها من جدل وحدس .

وربما كان ( الفيلفس ) آخر حوار اشترك فيه سقراط سجله أفلاطون ، قبل (الطيماوس) و (النواميس) . و (الفيلفس) مثل كل حوار كتبه أفلاطون وجعل سقراط أحد أبطاله ، ولا ندري اذا كانت الآراء الواردة فيه هي آراء سقراط وما مقدار تحوير أفلاطون لها . ويفتقر الحوار الى الحركة ، أبسط مقومات المسرح .

وينتهي دور فيلفس - الذي يحمل الحوار اسمه - في مطلع الحوار ليسلم أبروترخس دوره . يمثل فيلفس رأي أرستيب في اللذة المادية :

«فيلفس : يبدو لي الآن - وسيبدو لي دوماً فيما بعد - أن اللذة تغلب من جميع الوجوه» .

فكيف يتسنى لسقراط تصعيد هذه اللذة إلى لذة روحية على طريقة أبيقور الذي يحذر من لذة بهيمية آنية يعقبها ألم طويل ويدعو إلى لذة التقشف ؟

هنا يقوم أبروترخس بدور المحامي عن رأي فيلفس . وسقراط هو الخصم والحكم ، فهو الذي يختار محامي فيلفس:

«سقراط : ألا انظر يا ابروترخس أية قضية أنت موشك أن تتسلمها الآن من فيلفس» .

ويلاحظ فيلفس تحيز محاميه لسقراط :

«سقراط : اللذة والألم ، هل لهما حد ، أو هما ينتميان الى الأمور القابلة الأكثر والأقل» ؟

فيلفس : أجل ياسقراط إنهما ينتميان إلى الأمور القابلة الأكثر . لأن اللذة لن تكون كل خير ، إن لم يكن كل خير من طبيعته لامحدوداً في كثرته وفي قابليته الزيادة .

سقراط : ولن يكون الألم كل شر - يافيلفس - في هذه الحال ، فمن ثمة لابد لنا - نحن الاثنين - أن نبحث عن شيء يغاير طبيعة اللامحدود ، كي يؤتي اللذات قسطاً من الخير . وهذا الشيءفليكن في نظرك من جملة الأمور اللامحدودة . ولكن - يا ابروترخس ويافيلفس - في أي من الأجناس المذكورة تنزل الحكمة والعلم والعقل دون أن نأثم ؟ إذ يبدو لي أن المجازفة ليست بيسيرة ، إن أصبنا أم لا في الجواب على سؤالنا الحاضر .

فيلفس : إنك تجل إلهك - ياسقراط - إجلالاً .

سقراط : وأنت إلهتك ، ياصاح . غير أنه لابد من الإجابة على سؤالنا .

ابروترخس : وايم الحق ، إن سقراط ينطق بالصواب . ولا بد من الإذعان له .

فيلفس : ألم تختر - يا ابروترخس - أن تنوب منابي في الكلام ؟ »

فلا يكتفي أفلاطون بانتقاء شخصيات ضعيفة الحجة تظهر الى جانبها قوة حجة سقراط شأنه في ( المأدبة ) مثلاً ، بل يجعل لفيلفس محامياً يسحر بآراء سقراط . حين يقرر سقراط استحالة تمحيص جوهر الألم بمعزل عن اللذة ، يقول ابروترخس : « إن توجب أن نتبع هذه الطريقة فلنتبعها . » .

ورغم إيمان ابروترخس في أوائل الحوار باستحالة زيف الملذات والآلام ، فسقراط يستطيع - باسلوبه التوليدي - الحصول على

اعتراف هام من ابروترخس . يريد سقراط تجاوز اللذة الأبيقورية التي ترنو إلى انعدام الألم ، ويصبو الى دمج اللذة بالخير :

« سقراط : لاريب أنهم يرتؤون في اللذة آراء خاطئة ، إن كان انتفاء الألم ووجود اللذة من طبيعتين مختلفتين .

ابروترخس : إنهما مختلفان متباينتان . »

ويكاد ابروترخس يقتصر على التأييد :

« سقراط : فبياض صاف زهيد ، أكثر بياضاً إذن وأبهى وأصدق من بياض وافر مختلط . وإن زعمنا هـذا الزعم ، فقولنا مصيب من كل وجه .

ابروترخس : إنه فعلاً في غاية الصواب » .

ويمعن ابروترخس في التملق :

« سقراط : وايم الحق ، أنا لم أقدم للحكم آنذاك ، أسماء غير هذه .

ابروترخس : من شك في ذلك ياسقراط ؟ »

وفي نهاية الحوار ، نجد محـامي فيلفس الذي كان يظن الخير هو ملذات النفس ، يؤيد سقراط في تصنيف هـذه الملذات في المنزلة الخامسة .

# في المكتبة العربية

عرض : هشام الدجاني

في المكتبة العربية نتعرف هذا الشهر الى كتابين قيمين زاخرين بالمعارف والمعلومات، غنيين بالحقائق والمعطيات العلمية . وأول هذين الكتابين اللذين سنتعرف اليهما كتاب الدكتور أحمد شوكت الشطي « العرب والطب »(١) .

في هذا الكتاب يحاول المؤلف أن يحقق بعض الأهداف ، وأن يجيب على عدد من الأسئلة . من هذه الأهداف التي ابتغاها المؤلف :

١ ـ الحديث عن تاريخ الطب عند أمم نقل العرب عنهم .

٢ ـ الحديث عن مميزات الطب عند العرب وعن مشافيهم وما كان فيها من عناية .

٣ ـ الحديث عن الطب عند العرب إبان الحكم العثماني .

ومن الأسئلة التي يحاول المؤلف الاجابة عليها :

---

(١) منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ـ ١٩٧٠

متى وكيف نشأ الطب العربي ؟ ممن اقتبس وفي أي المجالات أبدع ؟ ماهي الانجازات العملية والنظرية التي حقق ؟

لقد خص أجدادنا الطب بعناية فائقة قد لانجدها عند غيرهم من الأمم . فقد ترجموا واقتبسوا ، ثم مارسوا وقاموا بتجارب علمية دقيقة ، وبعدها الفوا وأبدعوا . وكان لهم في ميدان التنظيم الصحي جولات تدهشنا حتى يومنا هذا . فالمشافي التي أنشؤوها والعناية التي كانت تبذل فيها أمر لانجده عند أية أمة أخرى من الأمم في تلك العصور .

حمل العرب لواء العلم منذ القرن الاول لانتشار الاسلام فيهم . واتصف عملهم بنشاط زائد واندفاع قوي لامثيل له في تاريخ الحركة الفكرية ، حتى ليصح القول إنه لولا العرب لانقطعت سلسلة العلم .

وفي ميدان الطب قام العلماء والتراجمة العرب بجهد هائل في ترجمة العلوم الطبية عن اليونانية . كما أخذ العرب عن الهند والصين ومصر ، واضافوا الى هذا التراث العلمي الانساني الكثير من التحسينات والابتكارات والمكتشفات . وتنافس الخلفاء الأمويون والعباسيون في تشجيع العلم والعلماء ، وأوجدوا دور العلم في دمشق وبغداد ومصر . وكانت آراء ابن سينا وابن زهر وابن رشد ونظرياتهم في الطب وفي غيره من العلوم في مقدمة النظريات التي تبنتها معاهد الغرب العلميه سنين طويلة .

ومن أشهر التراجمة العرب الذين كان لهم ، الى جانب فضل ترجمتهم ، جهود تأليفية مشكورة في صنوف شتى من المعارف والعلوم : يعقوب ابن اسحاق الكندي الذي كان عالماً بالطب والفلسفة والحساب واختاره الخليفة المأمون للترجمة عن اليونانية ، وحنين ابن اسحاق الذي اشتغل بالطب وقرأ على ابن ماسكويه ،

وكان عالماً باللغة اليونانية ، والفارسية والسريانية وله جهود عظيمة في الترجمة في العصر العباسي ، وثابت بن قره الذي نبغ في الطب والرياضيات .

ويخصص المؤلف في هذا الكتاب فصلاً خاصاً للحديث عن كبار أعلام الطب العربي . فيذكر لنا نبذة عن حياتهم ودراستهم وأبرز مؤلفاتهم وأعمالهم العلمية والنظرية . ومن الطبيعي أن يخص المؤلف بالذكر **الرازي** الذي ذاعت شهرته في الطب في الآفاق حتى نعته أهل زمانه بجالينوس العرب ، **والأهوازي** الذي اشتهر كتابه « كامل الصناعة في الطب » كما اشتهر بالتطبيب وبالعمليات الجراحية التي قام بها ، والطبيب الفيلسوف **ابن سينا** الذي ترجمت كتبه ومؤلفاته الى اللغات الأوروبية وظلت مرجعاً في دراسة الطب قروناً خمسة ، **وابن الهيثم** أحد العلماء الأعلام في القرن الخامس الهجري ، والبيروني الذي اشتهر بالطب والرياضيات .. وغيرهم من العلماء الكبار الذي حفل بهم العصر العباسي **كالقرطبي وابن زهر وابن البيطار** .



ويزيد من قيمة الكتاب العلمية ومن فائدته فهارس الأمكنة والأعلام التي وضعها المؤلف في آخر كتابه . وجدير بنا ان نقتني كتابا يذكرنا بصفحات مشرقة من تاريخنا ويطلعنا على حقائق كثيرة بعضها لا نعرفه وبعضها نسيناه أو كدنا .

وفي « المكتبة » نطالع كتابا آخر قيما هو كتاب « جسم الانسان » (١)

قليلون هم الذين يعنون بمعرفة عالم جسم الانسان ، وبفهم بنيته الداخلية ووظائفه المعقدة . انه عالم اشد تعقيدا من أي جهاز الكتروني حديث . وفهم

(١) تأليف الان نورس ، ترجمة حسن قصراوي . منشورات وزارة الثقافة ، دمشق — ١٩٧٠ .

الانسان لجسده ولطبيعة عمله يؤدي به الى اعجاب زائد بهذا الجسد واحترام له كما يقول الدكتور ارفين بيج في مقدمة الكتاب .

موضوع جسم الانسان بكل عمل اجهزته الدقيقة المعقدة هو موضوع الدراسة العلمية الشائقة التي وضعها الدكتور ألان نورس . انها دراسة مفيدة سلسة تتناول علم تشريح جسم الانسان ووظائف الاعضاء بأسلوب علمي مبسط سهل على الافهام .

يتحدث المؤلف في هذا الكتاب عن اجهزة الجسد المعروفة كالقلب والعضلات والعظام وأجهزة الهضم والدماغ والشبكة العصبية ، وعن كيفية عمل هذه الاجهزة والمهمات الضرورية التي تقوم بها والاخطار التي تتعرض لها أو تؤثر على حسن ادائها لوظائفها الحيوية . وهذا الحديث يخرج عن نطاق ما ألفناه في كتب التشريح وعلم وظائف الاعضاء المدرسية من بحث أكاديمي جاف . فالمؤلف يحشو مادته العلمية الصرفة بكثير من الآراء التاريخية الطريفة حول جسم الانسان وآراء العلماء في العصور القديمة ، كما يروي لنا بعض « الحكايات » التاريخية والمعتقدات التي ظلت راسخة سنين طويلة . كذلك يرفد مادته بآراء العلماء المعاصرين المختلفة وآراء الفلاسفة في الجسد وفي طبيعة عمله . ويرفق كل ذلك بالصور الملونة والعادية والرسوم التوضيحية الدقيقة .

ومن بين مايتعرض له المؤلف في كتابه القيّم تكيف الجسم الانساني مع التغيرات البيئية والطبيعية التي يتعرض لها ومقاومته الضارية لكثير من الاخطار والامراض التي يواجهها . ولعل مرد قوة الانسان وسيطرته على كثير من الظروف الصعبة والمواقف العصيبة تعود الى قدرة جسمه على التكيف ، وهذا ما يجعل

الانسان يتميز ويتفوق على كافة المخلوقات الاخرى التي تعيش على ظهر كوكبنا الارضي . ويتميز الجسد الانساني بصفة عجيبة اخرى هي التفرد في الشكل . فمن بين سكان الارض الذين يقدر تعدادهم بحوالي ثلاثة مليارات نسمة لاتجد انسانا صورة طبق الاصل عن انسان آخر . صحيح اننا نجد في كثير من الاحيان مشابهات قوية بين بعض الناس في الوجه والشكل ، الا انه من السهل مع هذا ان نكتشف الفروق فيما بينهم وحتى بين التوائم الشديدة التشابه يمكننا ان نلاحظ بعض الفروق مهما كانت تلك الفروق طفيفة .

واذا تابعنا التجوال في صفحات هذا الكتاب العلمي الثمين ازددنا معرفة واطلاعاً على كثير من حقائق هذا العالم السحري الواسع الذي مازال بعض اسراره مستغلقة رغم كل ماحققه العلم الحديث من اكتشافات وانجازات مدهشة . انه يطلعنا على حقائق كثيرة جديدة وهامة . أجل لقد نسينا اجسامنا في غمرة انها كنا في مشاغلنا وأعمالنا ، وفي غمرة سعينا من اجل تحقيق اهدافنا ومطامحنا . ولعل الكثيرين منا لايتذكرون اجسادهم وما لها عليهم من حق الا عندما تصاب هذه الآلة الجبارة ببعض الخلل او المرض او الارهاق . عندئذ فقط يهتمون بها ويلتفتون اليها . ولكنهم لايهتمون الا بالقدر الذي يمكنهم من اعادة تشغيلها بصورة صحيحة .

انه لأمر اساسي ان يفهم المرء طبيعة هذا الجسد ، وان يتخطى الشكل الخارجي الى ماهو ابعد واعمق فيدرك ادراكا افضل بنية الجسد الداخلية ووظائفه الحيوية ، ويرتاد هذا العالم الاصغر فيسبر اغواره ويحاول ان يفهم طبيعة علاقاته وطاقاته وروابطه بالعالم الخارجي . وهذا الكتاب يقدم لنا مساعدة جلى في هذا المجال .

# بادر الى اختيار هديتك

ترجو إدارة مجلة «المعرفة» من كل مشترك أن يختار أحـــد الكتب المذكورة أدناه، برسالة تصل الإدارة قبل نهاية شهر تموز (يونيو) ١٩٧١، كيلا يفقد المشترك حقه في الهدية عن هذا العام :

**نهب العالم الثـالث** : لبيير جاله . ترجمة يوسف شقرا وأديب العجمي

**دراسات في ماركس وهيجل** : لجان هيبوليت . ترجمة جورج صدقني

**الضوء الخافت** : مجموعة قصصية لحسن صقر

**الطاقة الشمسية** : لمارسيل داغر

**القيلفس** : لأفلاطون مع مقدمة للباحث الأفـــلاطوني أوغست دييس

**حوار في ليل متأخر** : مجموعة قصصية لمحمد زفزاف

**العرب والطب** : لأحمد شوكت الشطي

**فيدل كاسترو** : لناثيز . ترجمة حافظ الجمالي

**احتفال ليلي خاص لدريسدن** : مسرحية لمصطفى الحلاج

**فيرنر هايزنبرغ وميكانيك الكم** : لهيلبر كوني ترجمة وجيه السمان

# تنويـــــه

حمل الدكتور خليل سمعان الى مجلة ( المعرفة ) رسالة من الدكتور مالكولم لايونز Dr. Malcolm Lyons الأستاذ في معهد بمبروك Pambroke College في جامعة كمبردج Cambridge Univesity بانكلترا ، يطلب فيها الى الأدباء العرب إعلامه عن نتاجهم لتقوم المجلة التي يشترك في تحريرها بشراء آثارهم وتعريف القارىء الأوروبي بها .

ومن المعروف أن الدكتور لايونز يشترك مع بعض الأساتذة الانكليز والعرب مثل الأستاذ أحمد بدوي في جامعة أكسفورد البريطانية ، في تحرير مجلة Journal of Arabic Literature التي تصدرها جامعة كمبردج لتعريف القارىء الأوروبي بالأدب العربي .

« المعرفة »